صورة عارية

قصص

مارا أحمد

التدقيق اللغوي: د. أحمد جمعة

الإهداء

إلى من زار حياتي،

وخلف وراءه صورة أو قصة

أرد إليه عطيته .. حكاية

وإلى أمي...

أبنائي...

حفيدتي.

البيانولا

اتخذت مقعدي بجوار باقي الأطفال، ولكني لم أحس بأي منهم، وضعت تلك الستارة السوداء، وكأني أضع حزام الأمان؛ لأحلق بطائرة خيالي إلى عالم أنشده؛ إلى الجنة المحرمة. نظرت في تلك العدسة، متمنية أن أجتاز زجاجها بجسدي قبل عيني؛ لأكون مع أبطال تلك الحكايات. تربهل من الممكن أن تشفطني معها وتقذف بي إلى تلك العوالم في رحلة مدتها دقائق بعمر مرور الصور وسنوات بعمر متعتي؛ فألملم كل تلك القصص التي عشتها ودُست أرضها، أبتلعها كما كبسولات العلاج وأزفرها كلمات على السطر...؟!كنت أعيش المشهد، بطلةإحدى القصص أو مشاركة البطولة في قصة أخرى، أو أحد المجاميع في قصص أخرى، حياتي كما سينماالبيانولا؛ لقطات سريعة مع أفراد يظهرون فجأة، ويعلنون رحيلهم أيضا فجأة، لتتراكم تلك الصور في الذاكرة وأستدعيها في لحظات حنين ولحظات رفض لغيابهم، فحين يتوارون خلف الغيب يأخذون معهم جزءا من تاريخي وعمري، ويدفعون بي إلى الرحيل أيضا.

يدير رجل البيانولا العدسات، وتدور معها صور مازالت محتفظة بألوانها، ولكن صور أبطال قصتي باهتة.

أحيانا يتصدر المشهد أنف أحدهم، وأحيانا صوت آخر، وأحيانا شامة في وجه الحاضر. وكأن هناك من يعبث بعدسة السينما بداخلي. وهناك لحظات تتصدر المشهد في تكرارية غير مفهومة؛ حيث تم انتخاب تلك اللحظات، إما للتوبيخ أو للتحذير أو للعظة، أو ربما لأنها كانت لحظات استضافتني فيها السعادة.

لقد تم توثيق كل الأفعال وكل الاختيارات صوتا وصورة ورائحة؛ هناك من يسجلها كخير شاهد، والصور هنا رباعية الأبعاد وكثيرا ما تكون متعددة الأبعاد.

إنهم لا يغيبون إلا بأجسادهم، حاضرون في خلود، وبصماتهم مازالت منحوتة في اختياراتنا أو في إرثنا من وعي ومن قانون العيب أو من صفعة صدرت عن كف أحدهمغدرا؛ لتعلمنا درسا فحواه: "كن حريصا بلاتخوين مع من يدعون حبهم لك، ولا تأمن للقدر؛ فنحن نسكن كرة في حالة دوران دائم"، بل المجرة ذاتها في حالة دوران، وساعة الحائط في حالة تحرك دائب،ويتنقل بداخلها عقرب لا يكف عن النقر واللدغ؛ في محاولة منه لأن ينبهنا بأن نظل في حالة وعي دائم، بعقل حاضر وقلب خافق في ذكاء.إنها ذاكرة بقوة الصلب وسماكة الكون لا تنتسب لذاكرة السمك، وذاكرتي تعاني التكدسوالعمل الدؤوب؛لا تنفك تقلب بين الصور والأصوات والمناسبات، وأنا أهرب تارة وأستسلم تارة،إلى أن يكف الدم

عن الدوران وتتوقف النبضات عن التسارع؛وتثبت الصور على الصفحات؛ والجمل فوق السطور؛في شكل قصص أرويها بأنامل كفي بلا صوت بل منحوتات قائمة كما تماثيل المشاهير في الميادين الهامة، ربما يشهدها المهتمون ويعيرونها انتباههم.

بيانولتي كما سفينة نوح تحمل داخلها من كل ذي روح زوجين، ومن كل ذي عقل أفرادا، ومن كل النباتات ألوانها الخاطفة للعقول، غيرأني لست نوحا.

يعاودني دوما سؤال: لم أبطال حكايات البيانولا شخصيات إما جميلة جدا أو قبيحة جدا أو شريرة جدا أو طيبة جدا؟!الاوسطية في شخصية أبطال الروايات أو أفلام السينما أو التاريخ.

إن البطل يستمد بطولته حينما يحدث تغييرا، سواء أكان تغييرا للأفضل أو للأسوأ، لذا كانوا مخلدين في التاريخ والذاكرة.

البيانولا غنية بمثل هذه الشخصيات لتمر السنون وتندثر البيانولا ولكنها ظلت في وعيينا قائمة.

أحببتهم الثلاثة

التقيتبه، كان بل مازال وسيما ناعما كما الحرير، يتأنق لي؛ ينتقي من الملابس ما يجذب أنوثتي وبعطور عبقها يتسلل الأرواح قبل الأنوف؛ كان يقرؤني ويقتحم أبوابي بسهولة؛ كانبداخله "سنسور" غير متوفر إلا في النساء والأمهات خاصة؛ يعرف به متى وكيف وأين يستحضر ما بداخلي من نساء، حوّطني بعالمه الساحر والإضاءات التي تأخذني إلى أرض يقطنها آدم وحواء فقط،ولكن ما أوجعها من "لكن"؛ لكنه كان كما الحبيب في رواية تعيش معه قصة عشق خيالية، لكن أبدا لن يمنحني الحب الذي ينبت ولدا برحمي؛ كان حبا شفهيا لا يتعدى قبلات حارة وأحضان ناعمة دافئة، وكأني بين ذراعي أمي أو كان هو كما ابني، يتركني وعطش لا يروى، لم أتمكن من أن أتخلى عنه؛ فما بيننا رابطة ليس من السهل أن تمزق، كنت له أما وهو ابن من ذوي الاحتياجات الخاصة؛ في حاجة إلى وجودي بجانبه.

لألتقي به؛ ذلك الرجل ذي العقل الحاسوبي المنظم حد الكمال؛ دائما في عقله خطتان: خطه أ وخطة ب؛فلا مجال للمصادفات أو التلقائية، يتحرك بروزنامة وقلم ولابتوب، قال لي: إن تفاهمنا سنتزوج

في غضون سنة كخطة أ، إن لم نتفاهم سنمد العلاقة ليتم الزواج بعد عام ونصف ليس أكثر كخطة ب، سننجب بعدها بعام كخطة أ،

نسبةألاننجب لن تتعدى ٢% عندها سنلجأ إلى الخطة ب وهي الحقن المجهري، هكذا كانت علاقتي به مخطط لبيت وأسرة،

"لكنه" لم يحدثني عن الحب ولوعته وغنوة نظمها الشاعر لي خاصة أو العطر المفضل لي ولا حتى سألني عن لون قميص النوم المفضل لديه.

والتقيته؛ كان كما غضب من السماء، لأنني لم أمتن لما منحته لي من قبل،أحببته، صرت بين يديه كما الصلصال بين أصابع طفل يلهو به ويشكل منه النساء التي يشتهيها؛ حبنا كان عشوائيا،تلقائيا. أحببت عشوائيته وعشق همجيتي في ممارسة الحب و"لكنه" أبدا لم يمنحني وعدا أو موعدا للقاء، فكنت في انتظار مستمر ثم مكالمة مفاجئة وكلمتان، تصيب جسدي وقلبي بزلزال يصيبأوصالي، قوته تعدت ستة ريختر، هما "وحشتيني، تعالي".

كنت أتحرك كما مسلوبة الإرادة كما الملبوسبجن، أسرع إلى أحضانه، ثم لا موعد محدد بل انتظار.

أحببتهم الثلاثة، كلما حاولت أن أقصي اثنين منهم لأبقي على واحد فقط في بؤرة التفكير وحياتي، أرى صراعا يتزايد بينهم الثلاثة ليتصدروا المشهد وقلبي.

كنت أتجنب حين أكون مع أحدهم أن ألفظ باسم الآخر، فاكتفيت ب "بيبي"

كلمة ليست هي بحبيبي كاملة، ولا أبي واضحة، ولا حتابني بلفظ الدلال واضحة،

هي جمع لهم الثلاثة وليست أحدهم.

إلى أن حانت لحظة الاختيار، قال من كان كما ابني العاجز: "لابد أن نكلل علاقتنا برضا الله."، والثاني الذي كان كما أبي ذي العقل الحاسوبي صاحب خطة أ وخطة ب، قال: "إنه موعد إقامة شركتنا التي أتمنى أن تكبر لتصير مِؤسسة ناجحة بأسهم ترتفع إلى السماء."،

وحبيبي الثالث طلب مني أن أكون في بيته متهيئة الأنوثة كما فنانة إغراء دوما على سرير من حرير برباطأبدي.

ليس سهلا أن أبتعد عن أحدهم لأنتصر للآخر؛ فهناك من منحني الأمومة ومن منحني الأبوة وهناك من وهبني الحب. كيف أعيش بأحدهم دون الاثنين؟! ولأنني أحيا في ثقافة علمتنا أن نعيش منقوصي السعادة، فالكمال لا يجوز ويتنافى مع الطبيعة، ولأني أشك أنني سأخلص لأحدهم طالما ما زلت في حاجة للاثنينالآخرين، ولابد أن يتملكني واحد،اضطررت أن أختار رابع الاختيارات، وأن أحمل أوجاعي وحنيني إليهم جميعا، وأختار"حريتي".

الدايت "نظام غذائي"

إنه اليوم الرابع لي في "الدايت" نظامي الغذائي، محاولة مني لأن أخسر عدة كيلوجرامات من وزني الذي اكتنزبه جسدي خلال الأشهر الأخيرة منذ هجوم "فيروس كورونا"، تلك الكيلوجرامات التي زادت من ثقلي ومن حمولات إضافية على ركبتي مما أضعف حركتي وأخل من توازن جسدي؛ فصرت بطيئة الخطى، خاملة؛ أعاني ملل الحبس اللاإرادي وماصاحبه من اكتئاب.

أقلب في الصفحات الافتراضية على الفيسبوك؛ ليمر أمامي صور ومنشورات لشكوى الكثيرات والكثيرين ممن تضرروا وتضررن من الحظر والجائحة، هؤلاء الذين لا يعرفون معنى كلمة الادخار؛ فما يكسبونه يكفيهم يوما واحدافقط، يعيشون اليوم بيومه كما يقولون.

هالني استنجادهمبالموت، فهناك الكثير من الطلبات التي لا تكف عن فك الحظر والكثير من المخالفات والمحاولات لكسره، أنهميطالبون بإتاحة الفرصة لهم في أن يجربوا حظهم مع الحياة والموت؛ ففي كلتا الحالتين هم ميتون.

إن أغلقوا الأبواب فسيموتون جوعا، وإن فتحوها سيموتون مرضا؛"فالكورونا من ورائهم والحاجة من أمامهم".

وهناك على الجانبين أصوات تعلو لمجموعات بعضها عاشق وساجد للأمير وعبقريته ولمساته الإلهية التي ستحلب من أثداء السماء أكسير الحياة، والبعض الآخر يلعن ويسب في تآمره على الشعب والأرض بل والفضاء.

على مرمى الصورة، على الشاشة سيدة ترتدي العري، تتأنق بقليل الثياب وكثير المساحيق ويتسرسب من خديها حمرة الغذاء الصحي والمياه الصحية والهواء الصحي؛ تسب الجهلاء والفقراء الذين لا يبالون بالجائحة ومتمردين على الحظر ويتحركون بلا قفازات أو كمامة أو مطهرات، متهمةإياهم بالجشع والأنانية، ويالها من بجاحة منها ومن مثيلاتها حين يتحدثن عن الجشع ...! لم أسمع صرخاتها يوما حزنا على طفل قتل أباه نفسه خجلا من عجزه أن يكفله وأمه، لم أسمعها تسب الفقر والجهل والفساد يوما، ذات يوم تزعمت تلك النجمة مسيرة تندد فيها بقتل كلب هاجم طفلا وقضم فخده، ونددت بضرب الحمار الذي يجر عربة كارو يعاني سائقها من الهزال والبطالة، كنا نشيد بقلبها الرحيم على الحيوان الذي لاحول له ولاقوة؛ لكن أبدا لم نسمع صوتها ينادي بحق الإنسان في احترام إنسانيته وحقه في أن يتلمس طاقة نور ينفذ منها ليتكسب لقمة عيشه وأن تتوافر الشقق بأسعار تناسب الدخول الهابطة ولا بحق المرأة العاملة أو تلك التي تعول أسرتها -إما لمساعدة زوجها أو لموته أو طلاقها-بحقها في أن يتعامل معها المجتمع بقليل من الرحمة والرأفة.

أغلقت هاتفي والفيسبوك وأمسكت بكتابي الذي شرعت في استكمال حبكته الأرستقراطية؛ فأنا أهدف إلى نيل جائزة الدولة التقديرية عن عملي هذا؛ العاشر في فن الرواية المعاصرة وما أبدعته ثقافتي من رسم صور لأبطال روايتي الساكنين القصور والذين يعانون من اختراق الرعاع لمجمعاتهم السكنية"الكومباوند" وتلصصهم على بناتهم وزوجاتهم المستلقيات عرايا؛ تخففا من تخمة الملبس والحر على ضفتي حمام السباحة الحصري، وسرقاتهم المتتالية للفريجيدير والديب فريزر المكتظين بأطايب الجنة، وكأنهم استأثروا بمائدة السماء وبركات الأنبياء.

ألقيت نظرة على صورتي المنعكسة على مرآة غرفة نومي لأرى كائنا سمينا يعاني فائض البروتين والكربوهيدرات والبرود.

أمسكت بصفحات كتابي ذي الألوان المخضبة بالثراء ومزقته، ثم ألقيت به في وعاء القمامة الذي يحتوي على بقايا لحوم ودجاج وتوست بايت؛ فلايجوزأن نكتب عن الحياة في القصور وشباب وشيوخ يتم تعبئتهم في أكياس سوداء ويتم إلقاء جثامينهم في رعب من العدوى في سرية دون وداع، ونحن نتشدق بالصور البيانية وصحيح اللغة.

أمسكت بهاتفي وشجبت العري الاختياري والتخمة، وأعلنت صومي عن الثلاجة والكتابة حتى تغادرنا الكورونا وننزع ألسنة السحرة الذين تفننوا في إلقاء تعاويذ -من فوق منابرهم المستأجرة-غير مفهومة على آذاننا وأعيننا

فأغشتنا وأصمتنا وجعلتنا نرى المجارير أنهارا مصبها الجنة، وضعت قدمي في خف بسيط ونزلت لأجلس بجوار الرافضين للحظروالجوع والسقاية من ماء البالوعات والشاشات المتلونة،لأناصفهم الموت أو الحياة.

ذات البنطال المموه

كنت أتصفح رواية ل "جابريل غارسيا ماركيز" التي أزعجت عقلي وأثارت الرفض بداخلي لها؛ فلقد خالفت ما وصل يدي من ثقافة وموروثات؛ عشت عمري في ظلها في سلام، لكن يشفع لتلك الرواية "الحب في زمن الكوليرا" أنها لكاتب عاش على الجانب الآخر من البحر الثائر -بيننا؛ في عالم مقابل لعالمي، فكان جريئا في التسليم بالضعف البشري بل واحترامهللخطيئة الملازمة لحرية الاختيار وطبيعة الإنسان وتقديسه للحب.

كنت غارقا في السؤال وتائها في البحث عن الإجابة، حتى دخلت تلك المرأة المكان، حيّتني بصوت غير مسموع، فنحن في رحاب الفكر وعلى بساط القراءة بإحدى المكتبات، أزعجت بجمالها رواد المكتبة الذين كانوا منذ قليل مسافرين إلى عوالم مختلفة، وفي حالة من التحليق الصوفي في حضرة آلاف الأصوات التي تتحدث إلى مريديها من متصفحي الكتاب، وأزعجت بعقلي الأسئلة، والتي أبدا ما انفكت تثير تسونامي"في رأسي".

طويلة ممشوقة القوام، ذات شعر أشقر مصبوغ، مطلقالحرية، يتحرش به الهواء ويتحرش هو بقلوبنا كما صاحبته، ترتدي تي شيرت ملتصق بجسدها وكأنه كان لابنتها أو أخيها الأصغر؛ حدّد حجم صدرها واستدارته

فبرزت أنوثتها في غير تبجح، فلا شك أنها أبدت مهارتها في إحراجك؛ فهي تتكشف في تحفظ فلا تستطيع أن تتهمها بالفجور، وستفشل بلاشك في أن تمنحها هبة الحياء والتحفظ.

تحت التي شيرت ترتدي بنطالا من الجينز المموه كما زي مجندي الصاعقة، على جانبيه بالقرب من الركبتين جيوب كبيرة واسعة وتحت الخصر من الخلف أيضا، للحظة يساورك الشك أنها ستخرج من تلك الجيوب بنادق آلية لتصيب الحضور في مقتل.

وللحق نجحت بلا بنادق، فنصفها السفلي المموه كان صاعقة أهدرت كل قدرات الرجال القابعين في كراسيهم الممسكين بالكتب بلا تشبث والمتشبثين بجسدها بلا تفريط، ألقت التحية وسألتني بصوت أنثوي تعمدت أن ترفع من درجة أنوثته: "أين أجد كتابا عن محاكم التفتيش في العصور الوسطى؟".

أجبتها:

- معذرة؛ فالمسؤول ليس بأعلم من السائل، ولكن من الممكن أن تتوجهي إلى أمناء المكتبة أو من الأفضل أن تستخدمي الكمبيوتر الموجود في الصالة الخارجية لتستعلمي عنه، اكتبي اسم المؤلف أو اسم الكتاب وهو سيدلك على مكانه.

ردت: ميرسي.

(إنها عادة النساء؛ يحاولن أن يلمحن لمن يخاطبهن بأنهن ذوات ثقافات راقية غربية، فما عاد فخرا أن نتواصل متحدثين العربية، فاللغة نشأت أو خلقت لأجل أن يتفاهم أهلها فيما بينهم ويسهل التواصل بينهم، لكن تمكنت اللغة من "عنصرة البشر"صارت في عصرنا هذا وسيلة مبتكرة لتصنيف البشر إلى طبقات، فأنت قوي بقدر قوة البلد التي تتحدث لغتها، والعربية صارت لغة المرفوضين، لغة الضعفاء.)

استدارت في وقفتها، فانكشف جزء من خصرها، حيث ارتفع التيشيرت وانزلق البنطال قليلا،خبرتي كرجل كعبته النساء تقول:إنها تعمدت التكشف وإنها لا تأبهلاختراق العيون لحواجز المنع. أبعدت عيني ونزلت بهما إلى تلك الصفحة التي لم أغادرها منذ قدمت تلك العابرة، لتعود بعد قليل وفي يدها مجلد، حركت الكرسي المقابل لي واعتذرت عن صوت احتكاكه الذي أوقظ الانتباه فيمن حولنا، هو وحضورها، وجلستأمامي، تصدرت المشهد وصارت في بؤرة الانتباه.

وضعت المجلد وخلعت نظارتها الشمسية، أبعدت ياقة التي شيرت إلى الوراء ونفخت في الهواء بعض الزفرات إشارة منها لحرارة الجو في الخارج وتعرقها، وفتحت آخر زر كان يحول دون كشف الممر الساحر بين نهديها.

-الجو مميت وخانق اليوم، وجسدي لا يتحمل العرق والسخونة.

- بالفعل الجو ساخن جدا، ومن يتحمل السخونة سيدتي؟!

"قلتها؛ فلقد رفعت حرارة جسدي حد الحمى ونحن تحت هواء المكيف"

سألتها: "لماذا محاكم التفتيش؟"

-مهتمة بالبحث في الإنسان ومن الذي منحه سلطة الإله، فيميت هذا ويحي ذاك، ليحرم غيره من حقه في الصواب والخطأ بل ومن الحياة نفسها.

- هل بحثك لأجل الثقافة أم لأجل الدراسة؟

-لاثنين؛ فأنا أكتب رواية عن "الإنسان بين الإله والشيطان".

-عنوان مثير.

كانت تحدثني وأنا مشغول بالبحث في شيء آخر داخل عينيها، فما أجمل أن يتألق الشيطان في عينها!التي كانت ضيقة ولكنها مزدحمة بالذكاء، فمنحتها اتساعا يستوعب الأراضين جميعا،

لحظتها أدركت أنني في مواجهة امرأةاستغرقت ساعات أمام المرآة لتقدم أنوثتها في أبهى صورة واستغرقت سنوات حتى تشذب أفكارها وتجمل عقلها ليبدو مرسلا في حرية كما خصلات شعرها.

حاولت أن أشيح بناظري عن عينيها؛ فلقد اجتازت رجال القاعة جسدا،واجتازت عقلي عمقا، ورفعت عني سترتي وكشفت سوءة نفسي،

كان صوت ضربات قلبي عاليا في صمت وهناك شيء بداخلي ينهرني عن مواصلة التحاور معها وآخر يصارع هذا الصوت ويأبى إلا أن يرتكب حماقة التبرك بتلك الرسولة.

لكن شرقيتي كانت أقوى.

فكيف لمثلي أن يجابه امرأة يرتدي نصفها السفلي بنطال الصاعقة المموه؟!

لامرأة تترك العنان لأنوثتها لتمتطي القوانين فتروضها إلى أعراف للغجر؟!

امرأة صقلت فكرها فكان لها عقل كما المرآة تكشف أمامها نواقصنا قبل أن نتجمل محاولة لإخفائها؟!

امرأة لشفتيها أنصال تصرع بقبلتها متبتلا عاش عمره في تعبد واعتكاف؟!

إنها امرأة تقرأ الرجال، فتتجاوز حصونهم في يسر؛ لتمارس ديكتاتوريتها على قلوبهم في إقناع.

لملمت روايتي واتخذتالاتجاه المعاكس، فخطر أن أجتاز الطاولة الفاصلة بيننا فأذوب بها وأتلاشى،وانصرفت وهي تنظر إليَّ في إصرار من أعتاد الانتصار في كل المعارك.

توجهت خارجا من بابا القاعة في محاولة للهروب الصوري من سلطتها وفي أعماقي رغبة في قراءة ذلك الكتاب ذي الغلاف الأخاذ.

إذا بها تمد يدها لتحية رجل كان بانتظارها بجوار بوابة المكتبة، تمسك يده ويعبران الباب إلى السيارة بعد أن ألقت بنظراتهاإلى رسالةمفادها:

"بعض الكتب ذات غلاف براق وجذاب ولكن الغلاف وحده غير كاف لتحكم على المحتوى".

مالي أنا وامرأة ترتدي البنطال المموه!

المتفردة

أحبت ولم تكتمل قصة حبها؛ باءتبالفشل؛ فلم تكن قصة لها من الصدق ما يجعلها تجابه كل العراقيل فتجتازها وتمر إلى المرحلة الأهم وهي الزواج، لذا لم تأخذ منها وقتا لتجتاز آلام الفراق، لتنتقل إلى خطوة هي الفاصلة في حياة أية فتاة ألا وهي الزواج.

هنا قررت أن تنصاع لفكر الأم والأسرة وتقبل الزواج الصالوني وهو زواج قائم على حسابات تقاس بنسب الأسر وقدراتها الاقتصادية والتكافؤ الاجتماعي، غالبا ما تكون حسابات عقلانية محضة يتم قياس كل شيءووزنه، وغالبا أيضا ما تكوناجحة، كما تذهب إلى محل لشراء رداء فلابد أن تراعي المقاس الذي يناسب جسدك ولون بشرتك ومستواك الاجتماعي وموروثك الثقافي؛ هكذا نرتديما يليق بالثقافة الموروثة والمحيطة والمناسبة.

رضخت للموروث الثقافي؛ فالزواج بالنسبة لها ما هو إلا مرحلة يجب أن تجتازها لتنتقل إلى مرحلة أرقى، تزوجت بمعايير العقل، وأنجبت وليدها الأول وكان ذكرا، صارت الأمور كما خططت لها.

إلى أن استيقظت ذات نهار لتنظر إلى الصورة المنعكسة في مرآة خزانتها وتسترجع أحلامها وقيمتها وإلى ما صارتعليه، لقد تقاعست عن اجتياز تلك

المرحلة إلى أخرى؛ فماهي إلا زوجة وأم كما مثيلاتها وكما باقي الكائنات الثديية.

أم وزوجة ذات شعر غير ممندم وجسد اكتسب جرامات لا تعد من الشحم وصوت

كصدى خبطات أواني المطبخ؛مزعج، تنفض رأسها في اهتزازات متتالية وكأنها تحاول أن تفيق من كابوس طال؛ يخنقها، قررت أن ترفض استسلامها، خرجت لتمارس واحدة من هوايات عديدة تتقنها؛ هي فن التجميل، ليلمعاسمها وتكتسب اسما وشهرة.

بعد انتهاء يوم مشحون بالزبائن والعمل جلست تلتقط أنفاسها وتنظر إلى صورتها المنعكسة في المرآة لترى سيدة ذات شعر أشقر وبشرة غامقة، ودار بين خصلات شعرها ولون بشرتها شجار انتهى بعدم التفاهم ورفض كلاهما للآخر، ورفضها هي نفسها لتلك الشخصية التي سكنتها لفترة، تنفض رأسها لتصحو من ذاك الحلم السخيف؛ فهي رفضت أن تسير في ركب المجاميع،إنها تبحث عن نفسها.

تغير وجهتها لتعمل في الأزياء وتبرع في مجالها؛ فلقد اعتادت ألا تمارس مجالا إلا بعد دراسة، أتقنت فن تصميم الأزياء وبرعت فيه لتصير نجمة تلازم النجمات والمشاهير، واكتسبتموهبة أخرى؛ إنها القدرة على خلق

الجمال من الأسمال البالية،أعادت تدوير القماش والبشر لتنتج منهم قطعا فنية غبطها عليهم الكثيرون.

لينتهي الأمر بصرخة داخلية ورفض لتلك الشخصية: "لست أنا".

ذات شتاء بعد انتهاء المطر ليبزغ في السماء قوس قزح بألوانه السبعة المتدرجة في انتظام وفن وأناقة، تنظر تتأمل فيه، ما أروع هذا المنظر! إنهالكمال. لم تنظر إليه تلك النظرة الحصرية التي جعلته مرادفا للمثلية الجنسية، نظرتها إليه كانت انبهارابالنظام والتعددوالجمال.

وجدت نفسها كما وكأنها هي قوس قزح ذلك المخترق صراع المطر والشمس ليعلن عن وجوده وكأنه ابنا للتزاوجبينهما، نظرت إلى أعلى وظلت معلقة برأسها حيث يسكن قوس قزح وأحلامها.

أنا تلك السيدة التي جمعت في تاريخها الحب والزواج والأمومة والعقل وفن التجميل والأزياء، أنا أبحث طوال تاريخي عن شيء غاب عني ولم أتوصل إليه إلا الآن،أنا أفتش عن "التفرد" لا أسعى إلى التماثل والانخراط في القطيع، أريد أن أتربع على عرش الفضاء، أكون أنا.

تعود لتمسك باللابتوب لتبحث وتتعلم فنا آخر سيصعد بها إلى تفردها، لتجتاز كل العوائق، لتصل إلى ذلك المكان بالوزارة، ومنها للتخطيط لأن تتربع على الكرسي.

حين سألتها ساخرةإحدى الحاسدات: كيف ستصلين إلى هذا الكرسي في مجتمع يتعامل معك على أنك نصف إنسان بنصف عقل ونصف حق؟

أجابت: أصل حين أنبذ كل ما يضعفني ويكبل ذراعي وقدمي، وأنا تمكنت من التخلي عن ضعفي وتصنيفي العنصري كامرأة، أنا مخلوق محايد تنقل بين أطراف الحياة ونجح في كل مضمار تسابق به، ولابد أني أستحق التفرد...لن يحول بيني وبين أحلاميلا ثقافة ولا عنصرية، ولن يحول بيني وبين حلمي قانون "العيب" الذي صار عيبا.

عابر السماء

وضعت خطوطي الأولية على اللوحة، ثم مسحتها ثانية،وبعدها أمسكت بالفرشاة وشرعت في رسم البورتريه. كانت هناك روح ما تتلبس يدي وتدفع فرشاتي يمنة ويسرة وكأنه صار ليدي عقل وتركت لها الحرية لتكمل تلك الصورة التي أصرت على إكمالها، أبتعد قليلا لأرى الشكل النهائي، لأندهش لروعة اللوحة ولجمال إبداع أناملي؛ لم تكن تلك الصورة غريبة علي، لقد رأيت هذا الوجه من قبل، أعرف تلك الابتسامة وتلك العيون التي استمدت حبرها من زيتون أرضي، لقد تشكلت ملامحه من هذا البلد وخيراته، تذكرت فجأة أين ومتى رأيت هذا الوجه!

كنت بغرفتي أقف أمام المرآة أنسق ملابسي استعدادا للخروج،إنه موعد لقائي مع صاحباتي، نتجمع للذهاب إلى درس اللغة الإنجليزية، كنت لحظتها أجتر أوجاعي ورفضي لخلقي في بيئة لم يكن لي فيها اختيار واسم، مازلت لا أستسيغ حروفه أو شذوذ نغماته على أذني، مامعنى الحياة إن كنا لم نخترها ولانفهم مغزاها؟

إذا به يصفع الباب ويدخل زاحفا على أربع، ينظر لي مبتسما في ملائكية وكأنها ابتسامة خلق منها هذا الوجه؛كان وجهه مستديرا كما البدر

في ليلة النصف من الشهر العربي، قمحي اللون كما خير قرى بلادي، بغمازتين زادت من روعة ابتسامته وجمال وجهه،وكأنه لوحة يتمنى دافنشي إن أتاح له القدر تخليدها كما الموناليزا، نظرت إلى عينيه لأرى اخضرارها الزيتي، كتبصحبته في مسيرة تأمل في بساتين الجنة التي نزلت لتسع براح عينيه، كانت في بسمته الكثير من الحكايات التي لم أفهمها إلا حين اختبرت الحياة وصرت شابة، رفع كفه الصغير ملوحا لي، حاولت أن أمد له يدي أوأن أرفعه لأقبله، لكنه استدار حبوا وانصرف.

زيارته لحجرتي لم تدم إلا لحظات، لكن شعوري تضارب بين الرهبة والانبهار بذلك الكائن الذي نحته الإله ملاكا زاحفا على أرضي.

خرجت بعد قليل لأسأل أمي عن هذا الطفل الذي لم يتجاوز العامين، أجابتني بأنه ابن المرأة الريفية التي تحضر لنا الزبدة كل موسم شتوي.

مر عقد من عمري وقد انفرجت الأزمة قليلا وبدأت الحياة تفتح ذراعيها لي مرحبة، فجأة تذكرته وسألت أمي متحسسة أخباره حبا وشوقا، ليصفعني خبر موته؛ لقد سقط من النافذة وصعد إلى مقره الذي هبط منه زائرا.

هناك من نلتقي بهم لحظة، فتنحت ملامحهم في جلاء بقلوبنا وعقولنا، بل وأحيانا يغيرون وجهتنا.وهناك من يرافقوننا لسنوات ولانذكرهم، تبهت صورهم مع غيابهم كما زبد البحر.

لاأدري هل كان ملاكا عابرا السماء لأجل رسالة ثم تجاوزنا إليها عائدا؟ أم كان بشرا سويا أبدعته يد الخالق فأغبطنه أمه واستكثروا جماله عليها فأنزله هذا الحسد إلى القبر؟!أيا ماكان، فلقد كان زائرا خفيفا ترك أثرا لايمحي، وحينها وعيت أن الموت يتربص بالجمال، كنت أعتقد أن الموت رفيق القبح يأتي لينزع عن الأرض مافسد منها، ينزع عجوزا يعاني العجز أو مريضا يعاني الألم، وما أقبح الألم! فلم أكن أخاف الموت؛ فأنا بعد مازلت أتحسس طريقي إلى الحياة، ليفاجئني الموت أنه أيضا كثيرا ما يقطف الربيع، وأن أجمل الكائنات قصيرة العمر؛ فلا الياسمين ولا الفل يدوم عمره إلا لساعات، لكنه يمنحنا في دقائق قليلة الرائحة الطاغية والجمال المبهر ويصحبهما حين تلامس وريقاتهم أنوفنا اسم "الله"، الذي يحتضن كامل الجمال، وأنا كلما تذكرت ذلك الطفل قلت: الله.

فازت لوحتي بالمركز الأول؛ لاشك أنني كنت سعيدة، ولكن كانت سعادتي أنني تمكنت من أن أخلد صورته وأمنحه عمرا أطول ليراه الناس ويستمتعون معي ببسمته قصيرة العمر التي تمنح الجميع الأمل والتفكر فيمن أبدع هذا الوجه.

عاشت فماتت

كنت أتصفح الفيسبوك بصفحة المفقودين، ومنحني التصفح جرعة مكثفة من الحزن والألم والشعور بالمسئولية تجاه كل طفل تم خطفه أو استخدامه في التسول أو السرقة أو الدعارة أو التجارة بالأعضاء؛ لتتصدر ذاكرتي تلك الفتاة.

كنا أطفالا نلعب في حارتنا وبداخلنا أحلام لاتحدها سماوات ولا حدود مدينة، كنا نرافق الطين والحشرات والبرك والطيور والحيوانات، كانت بيننا وبين مفردات الطبيعة علاقات تتراوح بين التكافل والتآلف والقرابة، كلنا نقترب من الأرض والطين بل وما تحت التراب.

السماء بالنسبة لنا سقف يحمينا من الغيب ويطلعنا على أسراره أحيانا، بل كانت البراح الذي يحتضن أحلامنا، وتبتسم لطفولتنا، وكأنها كانت ترفق بنا، بعد أن لفظتنا الدساتير ومنظمات حقوق الإنسان.

فإذا بها تمر أمامي، فتاة لم تتجاوز العشرين بكثير،سمراء ممتلئة القوام ذات شعر أشعث تحك بأصابعها به كثيرا، فهناك مايتغذى على قاذوراته ويستعمر رأسها. ذات بطن منتفخة كما وأنها ابتلعت خروفا أو ربما طفلا، كنا صغارا لانعي أن بطن المرأة ينتفخ حين توشك أن تكون أما، فأبدا لاتنتفخ البطون شبعا في الحواري الخلفية.

كانت تترنح في مشيتها، فظننا أنها قد تجرعت زجاجة بيرة ملقاة بالحارة مما شربها الشباب بعرس الأمس.

لم تكن تتحدث لغة نفهمها؛ فهي تتلعثم بكل الحروف، تعاني لتنطق كلمة تعبر عن جوعها، لم تتعمد التسول،هي فقط جائعة.

ملابسها متسخة ممزقة ذات رائحة كريهة، فلاشك أن الماء لم يلمس جسدها منذ شهور، بل ربما لأعوام.ترتدي فوق جلابيتها بالطو مهلهلا أثقلته الأوساخ الملتصقة بقماشه، فكان يسقط من كتفها وتسنده بذراعها المعتل، منحه لها شخص ما قد رأف بها من البرد.

فجأة وصل إلى أسماعنا جملة حملها إلينا الهواء والتنصت الذي يدفعه الفضول لأن نفهم: من هي؟ ولماذا لاتعرف كيف تنظم جملة عربية نفهمها؟ ولم انتفاخ بطنها؟

لنعرف أنها تعاني من التأخر العقلي، لكنها تسمع وتنطق القليل جدا من الكلمات.

والأكثر وجعا، أن هناك من هتك عرضها مستغلا نومها في العراء مفترشة الرصيف،

فاستدرجها بلقمة أو بنومة في الدفء بعيدا عن سياط البرد وقرصة الجوع ليغتصب إنسانيتها ويسرق منها عذريتها

ويفسد الشيء الوحيد الذي وهبته لها السماء سليما وهو رحمها، ثم يلقي بها في الشارع بعد أن حرمها من حريتها وجسدها ورحمها الطاهر.والذي يحتضن الآن طفلا لايعرف أحد أو حتى هي: من أباه؟ حتى من أغتصبها ربما لم يكن الوحيد الذي اقتحم جسدها.

نصحو يوما وننزل كعادتنا إلى الشارع لشراء احتياجات البيت واللعب، فيدفعنا فضولنا لأن نتحسس عنها خبرا، لنعرف أنها تعثرت في ولادتها ليلا وهي تنام جوار الجامع، فحاول رجل -خرج ليصلي الفجر- أن يقدم لها يد المساعدة فنقلها إلى المستشفى العام فلقيت حتفها متأثرة بتعثر ولادتها والتلوث.

حاولنا أن نعرف مصير وليدها ونوعه، فلم نجد لدى أي من أفراد حارتنا إجابة.

ماتت وتركت بداخلي بل بداخلنا جميعا نحن كأطفال -أعتدنا اللعب دون خوف أو توقع لشر– صدمة ورعبا من الغد والقدر والبشر.

راحت وأخذت معها ضحكتنا بل ولحظات الأمان والسلام التي كنا نعيشها بين جدران بيوتنا وأحضان آبائنا، بل وفقدنا الثقة في حارتنا

وشارعنا الممتد بعيدا ليحتوي لصوصا ومغتصبين يتنقلون بيننا بلا وجع ضمير أو رأفة، أمسينا نخاف البيت ونخاف الحارة والجيران والغد، أذكر أنني قاطعت اللعب وطفولتي بعد ذلك الحدث.

وتركت صورتها بداخلي سؤالا كاد يسلبني اليقين:

لماذا جاءت هذه الفتاة إلى الدنيا؟ وماذا أخذت منها؟فهي لم تستعر حتى اللذة!

تلخصت حياتها في كلمتين: "عاشت فماتت"

الوشاح الأزرق

جلست أقلب في ألبوم صور الأسرة؛ فلقد اشتقت لرؤية أمي، مرت سنوات طويلة على رحيلها والحنين إلى حضنها ينقر في صدري كما نقار الخشب يلتمس إشباع جوعه إليها، هاهي تجلس بين أخوالي وقد فارقتها أغلب أسنانها لم يتبق منهم إلا أسنانها الأمامية، ولكنها لم تفقد خدودها الممتلئة والتي مازالت مرتفعة لم تتهدل رغم ضعفها.

ومن تحت طرحتها السوداء الحريرية تظهر ضفائرها السوداء الطويلة الناعمة كما ريش الغراب في لونه ونعومته، إلا من بعض خصلات بيضاء تظهر على استحياء بالصف الأمامي من شعرها في فرقه، على مسافات متباعدة، وكأنهم حملة استيطانية تتسلل محاولة السطو على ذلك الحرير الأسود، يغطي تلك الخصلات الحريرية وشاح أزرق يتناثر على أرضيته السماوية الزرقاء زهرات بألوان متنوعة بعضها باللون الأحمر وأخريات باللون البرتقالي والبنفسج وشجيرات هنا وهناك وكأن الربيع ألقى بسحره ليقيم جنة أرضها السماء، وكلاهما استوطن رأس أمي.

لا تبتسم أمي إلا حينما نجتمع حولها، وتتسع ابتسامتهاأكثر حين سماعها أخبار تفوقنا الدراسي،

أو حين تجمعنا أمام التلفاز لمشاهدة فيلم لإسماعيل ياسين أو فؤاد المهندس، وهناك صورتها وهي راضية رغم قلة الطعام وفراغ الطبلية من اللحم، تتظاهر دوما بالشبع حتى تترك لنا طبقها وتدعي التخمة وهي التي تلتصق معدتها بظهرها ضعفا وهزالا.

سجدت أمي شكرا حين أكملت رسالتها وأنهت دورها معنا بأن أوصلتنا إلى بر الأمان.

أتذوق الآن الفاكهة التي نادرا ما لمست حبيباتها لسانها، وكأنها رفضت إلا أن تنتظر وتفطر من مائدة السماء وأن يكون تذوقها للفاكهة من أول قطفة من فاكهة الجنة.

صورتها وهي وسط أخوالي كانت توثيقا للقاء أسري أبى إلا أن يظل قائما هنا بالأرض ولم يفرق الموت بينهم، فأبوا إلا أن يظلوا في ترابط وتلاحم هنا على الأرض وهناك بالسماء،حيث ارتقواجميعا، فكانت الصورة توثيقا لحبهم.

صورة حبلى

هذه أنا أحمل طفلي الأول، تُظهر الصورة وهني رغم امتلائي وزيادة وزني الذي يشير إلى أن هناك من يشاركني جسدي، ليس فقط، بل يملي عليَّ رغباتي وما تلفظه نفسي، إنه يحدد لي موعد نومي وصحوي وشبعي، لم أعد حرة منذ دبت فيه الحياة هنا برحمي. ومنذ متى وأنا حرة؟! ضل من ادعى كونه حرا، حتى جنيني المستوطن بطني منذ التقائي بأبيه تم تحديد جيناته التي يرثها من أبيه ومن أمه، بل هو عصارة جينات الأجداد؛ قد يرث لون عين جدته أو جده قد يخرج طويلا كما عمه، قد يكون عاطفيا مرهف الحس كما أمه، قد يكون عاشقا للسكريات كما أبيه أو قد تستهويه المخللات كما جده لأبيه، حتى تذوق الطعام نرثه عن آبائنا، فكيف سيكون حرا وهو قد خلق في تربة لم ينتقها، ومن هندسة وراثية طبيعية تم تحديد هويتها مسبقا؟!

وأنا تحركي غريزة الأمومة، أحببته بلا اختيار مني، حبه فطرة غرسها الإله بداخلي؛ حماية له وميكانيزم حتى تستمر السلالة وأحافظ عليه وأرعاه، حتى حبي له ليس اختياريا،

فكيف تعي الحيوانات قيمة الأمومة وتستميت دفاعا عن أبنائها وهي لا تعقل؟

نحن نتحرك وكأن هناك من يملي علينا اختياراتنا وتوجهاتنا، وكأنها مسرحية كتبت ووزعت الأدوار وكل يؤدي دوره ويجتهد في إبداعه، ولكن لا يجب أن يخرج عنDNAالنص؛ آخر الأبحاث كما قال أحمد زويل تقول:إن الجينوم لا يحدد السمات الجسمية والنفسية فقط، بل أيضا يمكننا أن نتنبأ من خلاله بشخصية صاحبه أيضا.

أذكر الآن حركة ابني التي لا تهدأ داخل بطني؛ ففي لحظة أجده يتقلب لتبرز قدماه يمين بطني، ولحظة أخرى ألمس فراغا في نفس المكان؛ فهو قد تقلب لينتقل إلى الجهة اليسرى؛ هكذا كانت طباعه حين خرج إلى الحياة، كانت حركته لا تكف؛ أبحث عنه في كل مكان، لا يثبت وحتى حين صار شابا.

شخصيتنا تتشكل منذ لحظة التخلق داخل الرحم، كان ألم خروجه إلى الحياة لا يطاق وكأنني تحت آلة للتعذيب، خرج هو يتنفس وتنفست أنا بعد أن كف التعذيب، ثم أتلقى بطاقة هوية وورقة جديدة تضاف إلى ما احتواه درج مكتبي من أوراق، تلك الورقة إعلان لمهمة جديدة لي ألا وهي الأمومة، تتراص الأوراق في ملفات عديدة وتكتظ أدراج مكتبي بالأوراق والمهام،

وكان بينها شهادات ميلاد وشهادات تخرج أولادي وشهادة وفاة أبيهم وشهادات مرضية وصحية وجوزات سفر، هناك ورقة مازالت غائبة ولا

أعتقد أنني سأستلمها؛ سيستلمها أبنائي بعد أن تنتهي مهامي، لتتلخص حياتنا في مجموعة من الأوراق والصور التي تبهت بمرور الزمن وتختفي علامات وجودنا إلى أجل مسمى.

امرأة نصف عارية

كنت أتصفح الفيسبوك، لتلفت نظري كما لفتت نظر الملايين من الرجال والنساء لقطةلامرأة يظهر وجهها وما فوق صدرها عاريا، وباقي الجسد متوارٍ خلف الصورة، كما وأنها إعلان عن صفحة لالتقاط متابعين للعرايا من النساء، هذا الانطباع الأول الذي يطفو على سطح العقل الذكوري العطش للجنس وعقلية النساء الفضولية الباحثة عن الطرق غير التقليدية للاستمتاعسريريا، حاولت أن أنفض عن رأسي تلك الأحكام الظنية، فراودتني عدةأسئلة تتعلق بمن في الصورة وما أرادت أن ترسله من رسائل قد تكون اتهامات تشير بإصبعها إلينا، فهناك إصبع ترفعه في وجه المتتبع لصفحتها ولسان أخرجته بطريقة مثيرة، بعد أن تخلصت من موروثي في الحكم على الناس استباقيا، أمعنت التأمل في الصورة، هيسيدة تظهر نصف عارية تتوسد ذراعها الأيمن، تبتسم وقد أخرجت لسانها، وتشير بإصبعها الأوسط، هي من قامت بالتقاط الصورة لنفسها،ما يسمى "صورة سيلفي"، ربما تكون شخصية عابثة أو قد تكون تاجرة في شيء ما أو ربما عاهرة.

هل تستعرض جمال جسدها كما لوحة من الفن الإيروسي بالكاميرا؟!

أم تروج لبضاعة رابحة هذه الأيام، بل طوال العصور؟

أو ربما لا تمتلك من المهارات ما يدر عليها عائدا لتعول أسرتها مثلا إلا جسدها؟

كلها تساؤلات تدور حين نرى صورة وجهها الذي يحمل جمالا وحمقا.

ما لفت نظري هو: لماذا تخرج لسانها؟! ولمن تخرج لسانها؟!

ربما يكون هناك شخص أحبته وتخلى عنها فأرادت أن تكيد له؛ ليندم حين يشاهد جمالها الفاتن، أو ربما أرادت أن تنتقم من أسرتها فأرادت أن تترك لهم الخزي والعار، أو ربما حين أخرجت لسانها كانت تخرجه لمجتمع يعاني من الازدواجية؛ تبعث برسالة إليه تقول: " سحقا لكم ولقيمكم وقانون العيب المنافق الذي تعتقدون".

إن كنت ذا ثقافة غربية تؤمن بالحرية غير المحدودة، فلن تشغلك صورتها وما وراءها من مبررات، بل ستكتفي بالتمتع بجمالها والتعليق عليها بكلمة تكشف رؤيتك وقيمك الليبرالية، لو كنت طيب السريرة سترفض فكرة كونها عارية تماما، بل ستكتفي بفرض أنها ترتدي فستانا عاري الصدر بلا أكتاف، وأنها تعمدت أن تلتقط صورة لها من فوق الصدر وستترك لك الحرية في تخيلها كما يراها خيالك الجائع إلى شيءما،فلا شك أنك ستنطلق في خلق القصص والإيحاءات الجريئة

التي تخلو من أي قيمة أخلاقية وستتوالى القراءات المثيرة والمشبعة لشهوتك. كل سيضع لمساته الخاصة النابعة من ثقافته ومعتقده وسيطلق لجام خياله ليكمل ما أخفته من جسدها، وقد يتلقى أحدهم لسانها الذي تخرجه كدعوة جنسية، وقد يفهمها البعض أنها تسبهم أو تشتم كل من يتابعها كصورة أو تلصص عليها، كاشفة لازدواجيتهم، قائلة: "لقد أمسكت بكم، ها أنتم تحملقون في صورتي العارية، فلم تنجحوا، بل أعتقد أنكم لم تبذلوا أدنى مجهود لتجاهلها، كثيرون هم من يلعنون التبرج والعري وهم أول مريديه، ربما أكون عارية وأتكسب من عريي لأعيش، ولكن لكم الحرية في عدم قبول صورتي بتجاهلها أو عدم الالتفاتإليها، ولكنكم لا تطبقون أمر غض البصر إلا حين تظهر أمامكم صورةلأم تفترشالطريق بيتا مع أطفالها دون غطاء في ليل الشتاء القارس، وكأنها تمارس الخطيئة، أو طفل ملقى على الطرقات بلا أهل أو مأوى.يبدو أنكم فهمتم حديث غض البصر وكف الأذى بشكل خاطئ،إنكم تغضون البصر عن صور تؤرق ضمائركم وتشعركم بهمجيتكم وفقدانكم للإنسانية، وتتسع حدقتها حين تمر من أمامكم أنثى شبه عارية ويسيل لعاب الرغبة إن كانت عارية، ربما تكون امرأة تعرت من كل المخاوف ومن كل الأردية التي تخفي تحتها مخالب وأنيابا لكائن ينقض على الضعيف كفريسة يتغذى عليها، وقد تكون امرأة تؤدي رسالة مقدسة كما تدربت في غرفات تأهيلية للعهر،فلا شك أن إشباع جائع عمل مقدس، والجوع أياكان نوعه للطعام أو للجنس ملعون.

صورة الملاك الباكي

صورة لطفل لم يتعد الرابعة من عمره، بجلابية ممزقة، حافي القدمين، متسخ، يستندإلى جدار أطلال بيت، باكيالعينين، يرتعد خوفا أو بردا، أو ربما ضعفا بسبب الجوع، كانت جلابيته الممزقة هي وطنه وبيته بل وربما هي كل أهله.

من أنت؟ أين أبوك وأمك؟ومن أين أنت؟

أنت عربي؟ واضح جدا من ملابسك أنك عربي، ولكن من أي بلد أنت؟

ملابسك تشبه زي كثير من البلاد العربية الشقيقة؛ قد تكون مصريا أو سوريا أو ليبيا أو يمنيا أو...

لم تخل عنك الوالدان؟

هل تهت منهما أم ضاعا بين جثث الموتى الذين غادروا بلادهم وأوطانهم بحثا عن العيش الكريم ولقمة العيش؟

أم ضاعا بين جثث الشهداء الهاربين من نار الحرب، الذين تبعثروا بين فريقين كل فريق يتحدث باسم الله وباسم الحق والعدالة، فاهترأت العدالة

بين أيديهم ولم يعد لها ملمح يوصف، بل صارت مسخا لا معالم لها تلمس بالعقل أو بالقلب أوبالعين؟

أم قد تكون نتاج أب وأم أخطأوا الطريق إلى الحب أو أخطا الحب الطريق إليهما فخرجوا إلى الظلام وخرجت أنت إلى النور؛ لتصفع المجتمع على وجهه، وتصفعنا على قلوبنا، تلقي بحجر على صدورنا، تلعن ضمائرنا التي أدمنت المخدر؟

من أنت أيها الملاك؟

صورة داعية

في زمن ما صعب أن تحدده باليوم والسنة؛ لكنه ظهر في هيئة لائقة بالعصر، يتقن عدة ألسن، دارس للفيزيقا والبيولوجي وعلم السيسيولوجياوالأنثروبولوجي، وكثير عن علم الجمال والفلسفة والكتب المقدسة وديانات الشرق وما يعبد الهندي الأحمر، إنه داعية حليق الذقن والشارب يرتدي الجينز والشميز، وسيم في أناقة.

انقسم متابعوه بين معجب ورافض، مريدوه من الشباب، من طبقات اجتماعيةمختلفة، من بلدان متنوعة، وقارات بلغات عدة.

يعزف الجيتار ويقوم بتلحين بعض الأغنيات التي تتسم بالكلمة الراقية التي تخاطب

عقلك وقلبك في هدوء؛ إنهلا يمتهن الدعوة كمهنة بل هي هواية أوبالأحرى رسالة.

شيء يثير بداخلك الغضب أو التساؤل على حسب ثقافتك أو تعصبك تجاه هجوم كثير من الدعاة الممتهنين الدعوة كمصدر للرزقعليه:هل هي حرب مخطط لها مدفوعة الأجر؛

ترعاها هيئات معينة في محاولة لإبقاء العقول تحت سيطرة الخوف والخرافة ...؟أم هو ثأر يفور داخل الصدور من كل تغيير وتطوير للأفضل،

وحرب ضد العلم وسلطة اليد العليا؟أم هي حرب لأجل البقاء؛ فوجود هذا الداعية يهز صورة هؤلاء المرتدين الزي الكهنوتي والعقلية المغلقة والمنغلقة التي لا تسعى إلا لتوسيع سلطتها ورأس مالها وممتلكاتها ونيل رضا السلطان؟

نجح في إعادة الكتب السماوية إلى مكانها الطبيعي التي نزلت لأجله؛ وهو تنسيق التعامل الإنساني مع نفسه ومع الآخر ومع المجتمع كما كتالوج لأحد الأجهزة الكهربائية.

فكل جهاز يأتي معه كتالوج لتشغيل الجهاز وكيفية التعامل معه وصيانته وكذلك مكوناته وتحذيرات من سوء الاستخدام، فلا قدسية إلا لله ومن بعده حياة الإنسان، والكتب هذه وسيط كتابي بين الإله والبشر كما الدستور.

إنه لم يقل بشيء يخالف ما نزلبالكتب من أن الآيات ليست للحفظ فحسب بل لتحويلها إلى سلوك، ولكن إن قدست تلك النصوص وحفظتها ورددتها دون فعل أو سلوك معدل للأفضل؛ فهي الوثنية، فلقد تم تقديسها، وهذا نفي لدورها الذي حدد لها، وهذا نوع من الشرك.

نحن في حاجة إلى تكريس جهودنا لدراسة العلم لأجل الاستمتاع بالحياة، كانت ندوته مختلفة؛ لم تكن للوعظ، ولا لمنح صك الغفران لعاص؛ بل

كانت نقاشا لآخر النظريات في علم الفيزيقا ونظرية الكوانتم التي أطلقها أينشتاين وصحبه، ونظرية الثقوب السوداء.

نجح هذا الداعية في الوصول للعقلية الغربية والشرقية؛ فلقد كان صورة لداعية مجدد ومتحفظ، فلقد تحدث إليهم بلغتهم، كانت جمله مقتبسة من آخر النظريات العلمية والاكتشافات المعاصرة؛ لم يمسك كتابا من أرفف عتيقة لم يتم الإضافة إليها بشيء من لغة العصر أو مخترعات طفت على السطح، فهو خليط حلال بين الدين والعلم، وليس بعمامة وككولا تقليدية تسجد لكل ما هو متوارث، فلا اجتهاد ولا بذل مجهود عقلي في قراءة النصوص الدينية بما يتلاءم واحتياجات العصر، فلايجوز أبدا أن نحيا في زي قديم ضاق فلم يعد يناسب قامتنا الشابة.

بعد عدة أسابيع يختفي ذلك الواعي وتتبعه الشائعات والتهم المعولبة، ويطفو على السطح ذلك الجهبذ الذي يقرأ من كتاب ورقاته صفراء عن حرمة كشف المرأة لرأسها، وحرمة السلام باليد وحق الرجل في الزواج من أربع لحل أزمة العنوسة، والتبرك ببول الجمل، ونكاح السبايا.

يقف شاب ويسأله بدلا من زواج الرجل بأربعة، لماذا لا يتكفل ذلك القادر بتزويج شاب وفتاة بدلا من استفراده بكل النساء لنفسه، عندها سيكسب ثواب تزويج اثنين؟

تنحنح الشيخ وعاد ليردد ما تم سطره من أحكام كان من كتبها يتنقل في سفراته بالناقة، وإن أخبرته بأن هناك وسيلة اتصال بلاسلك وأن هناك من صعد القمر ودراسات لأجل تهيئة المريخ للسكنى، لنعتك بالجنون أو ربما بالنبوة.

ثم تتبعه فتاة بسؤال آخر: ماذا فعل الفقهاء لإيجاد حلول لمشاكل المجتمع من عنوسة ورشوة واحتكار؟ وتكمل حديثها بأن الدين لم يخلق للتضيق على الإنسان، بل لتذليل الصعاب التي تواجهه ولحل مشكلاته واستمتاعه تحت غطاء الرضا من الله ومن المجتمع.

أخرج الداعية الذي يتلقى راتبه من هيئة رسمية منديلا ورقيا -فرض وجوده بديلا عن المنديل القماش-ليجفف به عرقه، تنهض الفتاة وتستأذن أن تقول كلمة أخيرة: الحركة مرادف للحياة والثبات مرادف الموت، وانصرفت.ليصفق القليل وتلعنها الغالبية، فتمسك بيد الشاب ويخرجان من القاعة.

الوسيم

شاب وسيم، لايهم هنا أن أصف تلك الملامح التي دعتني أن أصفه بالوسامة؛ فتذوق الجمال يتعدد بتعدد البشر، فما أراه جمالا قد يراه غيري قبحا.

تقف على المسرح فتاة لم تتجاوز مرحلة "العشر سنوات" أي مرحلة المراهقة إلى ناصية العقد الثالث، جميلة؛ شعرها أشقر، خمرية اللون، تضع ميك أب يتناسب مع السهرة، ترتدي فستانا سواريه أسود اللون حدّد قوامها المنحوت في رشاقة وحذاء ذهبي بكعب عال.

ويجلس في الصف الأول ذلك الشاب صاحب الصورة وقد تعلقت عيناه بها، لم تفارق حركاتها، بل وكان يردد كلمات الأغنية وكأنه يتكلم بلسانها كعرائس المبيت شو، هائما في جمالها وروعة صوتها، وهي كانت توزع نظراتها المحبة على الحضور وكأنها تغني لمن تنظر إليه وحده، هكذا كانت تثير المعجبين وتجذبهم إليها فلا يروحون منها بالخيال إلى امرأة أخرى، وكأنها تقول لهم: أغنيتي أنا ويجب أن تصحبني معك في الخيال، فلا مجال لامرأة غيري هنا، أغنيتي وأنا أحق بقلبك وعقلك وعينيك.

انتهت من وصلتها وذهب إليها بباقة زهور صفراء، منحته نظراتها وعطرها الأخاذ وموعدا،

ذهب إليها في الموعد وفي باطن صوته وفكره خطط لابد أن تنتهي سريعا في وقت أقصاه نهاية الأسبوع.

نجح في إغراقها بالوعود والهدايا حتى منحها مفتاح الدخول إلى قصره، وكان اللقاء ...

صب كأسا من مشروب مثلج ذي رائحة جاذبة لشهيتها جهلت اسمه لكن أدركت روعة مذاقه، تجرعته في دقائق، خلالها كانت تغني إليه وتتهادى لتسقط فوق حجره وهو جالس في مقعده متخذا هيئة الملوك وكانت هي الجارية.

قبلته، لمس خصلات شعرها، سألته عن تلك الصورة المعلقة على الحائط بالأبيض والأسود والتي تشبهه إلى حد التطابق: هل هو جدك ؟

تردد في الإجابة؛ فهي مازالت واعية ويقظة العقل وتدرك خطواته والألوان،

لم يحن موعد الصراحة...

فجأة بدأت تترنح، فأدرك أنه الموعد ولا مجال للقلق، بل إنه وقت الشعور بالأمان:

- إنها صورتي عزيزتي.

-فعلا صورتك؟ من نجح في تصويرك بالأبيض والأسود؟ إنها صورة عتيقة جدا، فنان من نجح في إخراجها بهذا الإتقان.

- فعلا فنان، إنه أنا منذ مائة عام.

-كيف ذلك؟ أنت لم تتعد سن الثلاثين بكثير.

-بل أنا في الخامسة والثلاثين بعد المائة.

-لا أفهم.

-ستفهمين؛تعويذة خلودي وبقائي شابا حتى الآن الفضل فيها لمن هن بمثل جمالك وعمرك وحمقك الذي يخلو من القيم، منهن أرتشف الحياة فلا أشيخ أبدا، طالما لم أقع في الحب بإحداكن.

حملها بين ذراعيه وصعد بها إلى مخدعه العتيق الذي مازال يعلن عن قرن مضى، ثم هبط بعد دقائق منتعشا وانتهت هي جسدا متيبسا باردا؛ فلقد غادرته النبضات والروح.

تمر الأيام ليلتقي بها في أحد المكتبات، نظرت إليه في رفض، هام بها، تابع أخبارها حتى استدل على عنوانها.

ذهب إليها خاطبا، فتحت له الباب بتردد،دخل، رحبت به وانتظرت أن يعلن عن نيته، جلس صامتا، فتش بداخله عن لغة يتحدث إليها بها، فشل، تحسس لسانه وجبينه باحثا عن أفكار فلم يجد، نطق: "أحبك".

ضحكت ساخرة،فنظر إليها ساهما ضعيفا، نظرت إليه في ثقة الأميرات وجبروتهن.

سألها الزواج، سألته عن مهرها، أجابها:أموالي وقصري ملك لك، قالت: بل قلبك،

- إنه لك.

-بل تقدمه لي على صينية من خشب.

-إنه لك.

"تسارعت السنون تلو السنين فوق جسده، ليظهر أمامها عجوزا تفترسه التجاعيد وأخاديد حفرتها الجاذبية الأرضية والفصول الأربعة لعشرات السنين.

ليسقط صريع هواها، وتبقى صورته المعلقة في قصره على جدار أحد غرف الاستقبال لشاب وسيم باكي العينين، صدره أجوف بلاقلب ومكانه ينزف.

امرأة سمينة

إنها صورة لامرأة سمينة ترتدي فستانا فضفاضا أظهر سمنتها الضعف، لاتضع مساحيق تجميل، تركت شعرها بلا تصفيف، أظافر يديها طويلة،ليد مكتنزة بلا مانيكير، ولكن لاشك أن أجمل مافيها أناملها ويديها، أمسكت قلما وكانت تتوسط مكتبها الخشبي العتيق، وكانت تتأمل في صورة وضعتها يمين المكتب.

منذ غادرتني، خاصمت مرآتي وغادرتها، تركتها تعاني الإهمال والتراب،أذكر أني زرتها الليلة السابقة، فرأيت خلف التراب -الذي كساها-امرأة سمينة قبيحة لاأدري كيف تركت صورتها على مرآتي.

لم أهتم، أدركت أنها عفريت يظهر حين تحزن المرايا.

أصبحت وأضحيت وأمسيت أصاحب ثلاجة الطعام، أزورها كثيرا، لاأملها، ولكنها تشكوني من فتح وغلق بابها عشرات المرات في اليوم، بل حتى في الليل لا أدعها تستريح، مابين الكربوهيدرات والمشروبات الغازية واللحوم أتجول متذوقة ثم مفترسة.

الدهون سكنتني واحتلت أردافي وصدري، فصرت أهتز كما الباندا، لأترك توابع زلزالية بشقتي.

تركت مساحيق التجميل ملقاة كما العجائز فوق تسريحتي، وقد أصاب أصابع أحمر الشفاه التجاعيد والتشققات، أما فرشاة البودر فقد منحتها لقطتي لتلعب بها كما كرة التنس تقذفها بيد وتتلقاها باليد الأخرى، وزجاجات عطوري قد جفت؛ فلقد تسربت من محبسها داخل القوارير لتتحرر وتحلق في الهواء مغادرة؛ غضبا من امرأة لا تعرف قيمة صحبتها، بل أشم عرقي الذي تنفس سعادة، فكان ذات يوم حين احببتك مطاردا مني؛أحاربه بالماء فلا يجد وطنا على جسدي، أما الآن فنحن شركاء لجسد واحد نتناصف الحياة.

أنظر إلى أناملي لأرى أنامل مكتنزة باللحم والدهون، أظافر طويلة بلا تهذيب.

منذ غادرت، حزمت مع حقيبتك أنوثتي وتركت وراءك مخلفات امرأة بلاترتيب، يبدو أن المرأة تتحول إلى كم مهمل حين يغادرها الحب الذي يمنحها الرغبة في الحياة ويجعلها تنقب عن أنوثتها في أعماقها وتستخرج كنوزها فتضفي الألوان على الحياة ووجهها.

على الجانب الآخر، كان يجلس كهلا على مكتبه وبيده قلم من الحبر القديم، كتب رسالة إليها؛ فلقد غادر جسده الماء وجف وتشقق وغالبه النوم خاليا من الأحلام التي كان ينهض بعدها في كامل حيويته، كان وجهها كما الشمس؛ لايجوز أن يبدأ النهار إلا بعد أن تطل هي:

"أنا بعدك أصابني الوهن وانحنى ظهري، صرت كما شيخ فقد عكازته، فلم يعد يبرح مكانه إلا وانكب على وجهه، وكما القميص الذي بهت لونه وصار باليا مستهلكا ..."

أنهى رسالته وأتمت رسالتها، وبحثا كلاهما عن صندوق بريد فلم يجداه،سألا عن ساعي البريد فأجاب الموظف بأنها مهنة انقرضت منذ عقود وحل محلها التواصل اللاسلكي، هناك الفيسبوك والواتساب والتليجرام، فالعمر يمر أسرع من أغنية لأم كلثوم والأغنية في عصرنا الحالي لاتستغرق الدقيقتين، والحب ومعه الخجل صارتا كلمتين فارغتي المضمون، ومرادفة العلاقة والكيمياء.

خرجت من مكتب البريد لتلتقي به ممسكا بالخطاب كما هي، يمد يده إليها بما كتب لها وهي أيضا، ثم يمسك يدها ويتجاوز بها الطريق والبريد.

باقة زهور

نظر إلى نفسه في المرآة؛ يتأمل تلك الخصلات البيضاء التي بدأت تتوغل كما المحتل بين شعره الأسود، حدّث نفسه قائلا:

لابد أن أذهب إلى الحلاق ليعالجها بطريقة لايبدو منها أنها صبغة.

وضع عطره الخاص وتأمل نفسه للمرة الأخيرة بالتي شيرت البينك والبنطال الكحل، رضي عن مظهره، أمسك بالبليزر ووضعه على كتفه مرتديا له، ألقى السلام على زوجته وخرج مغلقا الباب خلفه، دخل المصعد وهبط به إلى الجراج، استقل سيارته في طريقه إلى عمله،يقوم بتشغيل الراديو على محطة الأف إم.

فكانت (ياحلو صبح) لمحمد قنديل يليها ثلاث سلامات.

متسائلا: مابك ياقنديل؟! ماحكايتك اليوم؟!

أنت تعزف بصوت عالٍ على ألمي.

وتسحبت صورتها إلى عينيه، فلم يعِ الطريق أو المسافة، حتى إنها توسدت مرآته، فلم يعد يرى من خلفه؛ ياله من حنين!

لقد قسوت عليها، هي التي لم تبخل بكلها علي؛ كانت لي أما وحبيبة وعشيقة وصديقتي الوحيدة، إلى ماذا يحتاج الرجل أكثر من ذلك؟!

الفرق شاسع بينها وبين تلك المرأة التي تشاركني الغرفة والفراش ومائدة الطعام، بل وتسبق يدها الطريق إلى جيبي،والتي تتسلق رقبتي بحثا عن منفذ للتحليق إلى السماء حيث الأحلام براح بلا ضريبة أو رسم دخول.

وأنا كما عفريت المصباح يحكون ويحكون ظهري ورأسي لكي أحقق لهم تلك الأحلام التي لاتتوقف عن التوالد والتكاثر كما الأرانب.

لقد كانت وسادتي التي ألقي عليها رأسي بلا خوف من طلب أو لوم أو قصص عن مغامرات تسوقية لاقبل لمثلي بها.

لكنهن النساء كما الزمن؛ لا أمان له ولا لثباته ولاضمان لما يحمله في جعبته.

فجأة طالبتني بحقها في أن تكون زوجتي أمام القانون.

صرخت: مابال القانون بالحب؟مابال الناس فيما بيننا من حب؟

أعشقك أيتها الحمقاء، فلا نساء في مساحة حياتي إلا أنت؛ أروح عنك محملا بك وبصورتك، برائحتك، هل هناك قانون سيضمن لك كل هذا الحب؟

كانت كما الببغاء، رددت جملا مكررة كأغاني العرب عن اللوعة والقلق والأرق والخوف من الغد، أي غد حبيبتي؟

أنا لايمثل الغد لي إلا أنه مواقيت انتظار للقائك،أغادر حضنك لأتنفسه ليلا نسمات ترافقني مؤنسة غربتي عنك.

ليتمكن منها الحمق وتعلن عن رحيلها، تركني عاريا في شتاء لايغادر، والقت على رأسي لعنة الحنين، وقد اتهمتني بالأنانية بلسان مطمئن.

تركتها تجتر سعادتنا وتتنفس ذكرياتنا فتعود،انتظرتها غد وبعد غد وبعد غد، فلم ينته الانتظار ولم تعد هي، ولم ينتهي الغد القاحل منها.

وصل إلى مكتبه، وضع حقيبته وألقى بنظارته على المكتب، طلب من الساعي قهوته المعتادة إلى أن جاء موعد الاجتماع،ينهمك في جدول طويل ممتد لساعات، يشعر فجأة بالاختناق وألم أعلى كتفه الأيسر.

يلحق به أحد الموظفين، يجاوره في الجلوس، وتسرع أخرى بالاتصال بالإسعاف،

يفيق ليجد أولاده وزوجته محيطين به وعيونهم جميعا معلقة به وعدة كلمات تتناوب على سمعه: بابا حبيبي، أخي الغالي.

يعتدل في رقدته ليطمئنهم أنه بخير، ينظر بعيدا إلى المدى باحثا عن عين كانت تتأمله في عشق ذات ليالي كما راهبة في حالة صلاة،يسأل ابنه: متى نحن؟ هل جاء الغد؟ وقد اغرورقت عيناه بالدموع وتسارعت نبضات قلبه حنينا، فإذا بباقة زهور تحملها ممرضة بلا كارت، ولكنه فهم من انتقاء الزهور ماحملته من رسالة.

كانت تقول له: لتشف سريعا؛ فأنا في انتظارك. احتضن باقة الزهور وطلب دواءه، فلقد حان موعده وحان موعد خروجه من المشفى ليلتقي بها.

وقرار اتخذه بينه وبين نفسه: أنه سيهبها ما أرادت، فلاحياة دون الحب،ولامعنى لسنوات عمره دونها.

ابنة الربيع

أتممت عامي السادس عشر، اليوم استلمت بطاقة هويتي،منذ اليوم لي الحق في أن أختار حاكم مدينتي في انتخاب أعضاء مجلس النواب، أو رفضهم، صرت أحد أفراد هذا المجتمع.

أنا فتاة أقضي جل ليلي في الأحلام؛ لي الكثير من الرصيد منها؛مكتظ بشتى أنواع الأحلام:

هناك حلم يراودنيعن فتى الأحلام، تتنوع ملامحه بتنوع حالتي المزاجية واضطراب هرمونات جسدي؛ أحيانا يطل بوجهه الشاب الذي غطته بثور حبوب الشباب، وأحيانا يأتيني كرجل ناضج يحتويني من غموض العالم، يقدم لي الأساور المرصعة، وأحيانا يحضر إلى الرؤية كمناضل يرتدي الشال الفلسطينيويلوح بيده رافضا للاحتلال الصهيوني،نادرا ما أراه ثابت الملامح،

وأحيانا أراه لاعب كرة يتنقل بين البلدان وأتنقل معه لأشاهد العالم،ينتشلني من التقوقع في بلدي، في قريتي، في بقعتي الخاصة بحجرتي.

أو قد يكون مطربا مشهورا تطارده المعجبات، ورغم ذلك لم يحب سواي، تطارده المعجبات وأطارده بحبي وغيرتي،يغني لي عشرات الأغاني،وإن اختلفنا؛ يناديني بأغنية ودمعة في أحد برامج الفضائيات.

وهناك أحلام تحلق بي لأكون ذاتي؛ مكتفية بنفسي؛ كامرأة ناجحة تتساقط فوقها الأضواء؛ لاتكتفي بأن تقف خلف رجلها في الظل.قد أكون طبيبة تصاحبها سماعتها ومشرطها،الأولتكشف عن مكمن المرض والآخر يشق لنزع العطب من جسد مريض، وأدخل التاريخ باسمي لا بكنيتي كأم فلان أو زوجة فلان، بل أنا.

قد أكون معلمة تتزعم صحوة فكرية بين طلابها الذين يتطلعون إليها كمنبع للحكمة والحقيقة الواحدة؛ فأوقظ مابداخلهم من أحلام، فيخرج جيل يرفع الوطن على أكتافه ناهضا به من بؤرة ظلّ فيها عقودا كبلد في آخر ركب الحضارة.

حين تتعقد العلاقة بيني وبين هرمونات جسدي وتضييق رؤيتي وتتقزّم أحلامي، أراني زوجة وأما خزنت كل أحلامها لتهديها إلى أبنائها؛ أساندهم ليحملوا راية طموحي، ليحققوا ماعجزت عنه.

أنا فتاة في مقتبل فصل الربيع متقلبة كما هو ذات عواصف وأتربة عن غضب،وذات زهور تفوح عطرا وتتراقص للحياة، بل هي الحياة،أشعر بمدى حظي حين أرى نظرات النساء والرجال لي، النساء ذوات المسؤوليات التي أنهكت كاهلهن فزهدن في التبرج والتأنق والأحلام،

هنا رجل ينظر لي وقد اعتلت وجهه ابتسامة،وشرد بقلبه وعقله بعيدا محلقا في أحلام اليقظة؛ربما يرسل لي رسالة أنه يغبطني على قدومي إلى

الغد؛الذي يغادره هو إلى العجز وأمنية تطل من عينيه: ألا ليت الشباب يعود يوما؛ ليصحبني في رحلتي والقادمن أحلام؛فلقد أجهده الواقع وكتفته طلبات وأمنيات الغير.

أرى نظرة عجوز لي وقد سال لعابه على فورة شبابي ورغبة تتأجج داخله،لكن أجهزته عطبت،وروحه مازالت بعد شابة؛روحه كما سائق شاب يقود سيارة عتيقة تآكل هيكلها،وعطبت أجهزتها التي تم إصلاحها عشرات المرات،وتغيير أجزائها بأخرى، كما رقع في فستان سترت الجسد ولكنها بلا جمال، ضعيفة لاتتحمل تقلب المواسم، سرعة السيارة تكفيه لتحمله فقط إلى السوق والعيادات.

أنا فتاة متأنقة بالحلم والثقة إلا من ترقب القدر ويده الممدودة لي بالمفاجآت التي قد تكون جميلة وقد تكون كارثية.

جواز مرور

يظل الألم رابضا بين ثنايا عظامي وفي صدري، يركض كما حصان في سباق، ألتقط أنفاسي التي استحالت كما الزئبق قاتلة، أمضغ اللقيمات بلا تذوق بلا اشتهاء، أشاهد الفيلم فلا حس للألوان ولا تمتع بالمحتوى، لا أفضلية لليل ولا لليوم.

أنا أحصي عدد الدقائق والساعات والأيام؛ لأحصي عمر هذا الفيروس اللعين؛متى يأتيه الموت فيرحل عن جسدي،الذي جعل منه مرتعا له. الألم أفقدني طعم اللحم والخبز بل والماء، والأكسجين ضنَّ بذراته على رئتي، إن لم تغادر أيها اللعين فليتك تخلي بيني وبين الموت؛ دعني أغادر، ولكن هل حقا أتمنى الرحيل؟!

لا؛ فرغم تاريخي مع الحياة وعلاقتنا غير الحميمة إلا أنه مازال هناك الحلم، الأملفي إنجاز جديد أو تغير ما في الأحداث،أو انتقال ما إلى حياة أخرى أفضل.

مازلت أتشبث بحقي في اقتناص شيء من السعادة،لكن ماهو نوع الحلم؟ وماهو نوع الأمل؟ بل ماهو نوع السعادة...؟!

ربما الميل إلى المعروف والمعتاد صار إرثاوثقافة تدفعنا إلى التشبث بماهو مألوف عن غيب نجهله، هل سأسير في ذلك النفق المظلم الذي يطول ثم ينقشع عنه الظلمة فجأة لأشاهد ذلك الضوء في نهايته؟

ولكن ماذا بعد الضوء؟ ماوراءه؟ هل هي مراعي خضراء سندسية الملمس تحفها الزهور والملائكة وأنهار من عسل؟

الإعلام يخوض حربه مع الخبراء والمحللين،وأنا أخوض حربي مع الألم والنعي المتواصل لضحايا الكورونا والخوف.

"تصحو على بلد غريب لاتعرف أغلب شعبه، ولكن هناك يقين بداخلها أنها تعرف هذا البلد وتشم على أرضه رائحة أحبة سافروا إليه قبلها، تتحسس صدرها وجسدها، لقد برأت من الألم والوجع؛ يبدوأن الفيروس قد غادرها، رأت ناسايتحركون أمامها وخلفها وعلى اليمين واليسار وهم يرتدون ملابس غريبة ليست لها ملمس القطن أو حتى الحرير الصناعي بل كانت ملابس افتراضية؛ يضغط أحدهم على زر باليد فتتغير ملابسه في لحظة، مرة (بنطال وقميص) ومرة (شورت قصير وتي شيرت) ومرة (بدلة سهر) وهكذا النساء. وقفت ونادت على أحدهم،نظر إليها وتعلو وجهه الابتسامة الصافيةالتي تمنحك السلام والأمان.

سألته: أين أجد أقرب سفارة لبلدي؟

- أنت في بلدك، لماذا تحتاجين السفارة؟ ثم لاسفارات هنا؛ فنحن نقطن أرضا واحدة، لاحدود، لا جوازات سفر، لا لغات؛ بل لغة واحدة، ولا أعلام، فالجميع على علم بأرضه وبيته، لن يضل.

- لا، أنا لم أر هذه المناطق من قبل؛ كل شيء هنا جديد؛ لم أعتد تلك المخلوقات والناس،

كيف أذن أجد سيارة أجرة؟

- تستطيعين أن تطلبي أية سيارة تسير بالطريق عن طريق ضغط زر بمعصمك.

- أنا لم أطلب من أحد أية أجهزة توضع بمعصمي.

- كل فرد هنا مجهز بأزرار ليلبي من خلالها احتياجاته.

- ولكن أنا لست من مواطني البلد؟

- بلى، أنت مواطنة، أنت منا الآن.

- وماذا عن النقود؟ فأنا لاأملك عملاتكم.

- ليست عملات، فلا عملات هنا،بل أجهزة تمررين عليها بصمتك فتمنحك ماتحتاجين من صكوك افتراضية تتسوقين بها، وهناك امتياز آخر ألا وهو

أن تتحدثي في كفك فيمنحك الحق في الشراء والتسوق؛ فهناك شريحة غير محسوسة تحت الجلد تتواصلين بها مع كل أجهزة الإمبراطورية.

- في كفي؟

- نعم.

- ألا تخشون النصب أو السرقة؟

- لماذا نُسرق أو ينصب علينا؟! الجميع هنا لديه نفس الحقوق ونفس الرصيد.

توجهت لمعرض السيارات على يميني وسألت عن ثمن إحدى السيارات، فقال لي صاحب المعرض:

- أية سيارة هي في متناول يدك وفي حدود إمكانياتك،لاتقلقي، فقط أريد بصمة إصبعك لأعرف رصيدك المتاح.

- لا رصيد لي بمصارفكم.

- بل حينما كنت بالعالم الآخر ادخرت الكثير في مصرفنا،كل ماصدر عنك من أعمال كنا نسجله على اسطوانة مدمجة تنتقل إلى المصرف المركزي، تحصلين منه على نقاط تنفقينها حين مجيئك هنا؛ كان يتم الادخار لك، فنحن نتقن العدل والنظام.

أحضر جهازا مررت عليه سبابة يدي؛ ليمنحني في أقل من دقيقة مفتاحا يعمل بالإشارة عن بعد. سألته عن رخصة القيادة وطريقة استخراجها.

رد قائلا: الرخصة تستلمينها عند أية إشارة مرور،والسيارات هنا تعمل إلكترونيا، بمجرد دخولك السيارة يعمل العقل الإلكتروني لتتحرك وتتجه بك إلى المكان الذي تم استحضاره في عقلك.

ركبت السيارة التي فتحت بمجرد اقترابي منها، ظللت أتجول بنظري إلى اللافتات التي تحمل صورا لحاكم المدينة؛ فلاوجود لها، ماهي إلا شاشات توضيحية وإرشادية للطريق وللمدينة التالية، وصلت لأول إشارة مرور؛فإذا بالشرطي يطلب مني تمرير سبابتي على جهاز بيده، بعدها قال لي: الآن قد حصلت على رخصة القيادة.

سألته: كيف؟

رد قائلا: أعرف أنك مواطنة حديثة هنا؛ فكل المستجدين تنزل بياناتهم على أجهزة الإمبراطورية، وكذلك بصماتهم، وظهر هنا على الجهاز كل المعلومات عنك؛ اسمك وعمرك والحالة الاجتماعية والوظيفة التي أنهيت بها خدمتك، وسجلك الأمني.

تفضلي في أمان الله والعدل.

دخلت أحد الأسواق الكبيرة، بل كانت كل الأسواق بهذه الإمبراطورية كبيرة ومتوفر بها كل ما تحتاجه، بل وما كنت تحلم به؛ بمجرد أن أفكر في شيء أجده أمامي؛كما كان يفعل الذكاء الإلكتروني على السوشيال ميديا، وكأنهم يقرؤون أفكاري؛ جمعت المشتريات وتوجهت للكاشير؛

فلم أجد أحدا؛بل شاشة عملاقة كما الخيمة فقط تمر من تحتها؛ لتسجل ما جمعته من مشتريات وتسجل استهلاكك من نقاط؛سبق وأن شحنتها عند دخولك السوق.

الجميع يلتزم بالنظام وهناك سرعة في المحاسبة فلازحام ولا طوابير، فجأة تذكرت معضلة؛وهي أنه لابيت لي بهذه الأرض، لم يستغرق القلق مني طويلا؛لأجد شاشة بداخل سيارتي تتحدث بأنها مسئولة عن نقلي إلى بيتي الجديد.

أثناء الطريق كنت أفكر وأتخيل شكل بيتي،وكيف أنني لطالما حلمت بمزرعة واسعة تغطيها الخضرة،وبيت واسع متوفر به كل ما أحتاجه من كماليات وخاصة الماء النقي؛ فلقد تركت بلدي وهي تعاني نقص الماء وحربا وشيكة لحفظ أحقيتها في نصيب عادل من النهر الذي لوثناه بمخلفاتنا.

في دقائق معدودة وصلت إلى بيتي الجديد؛ كان كما حلمت، إن لم يكن أجمل.

ركنت السيارة أمامه؛ فلاخوف من سرقة ولا إفساد من أي جماعة تكن حقدا أو ضغينة من عدم المساواة ومن الإجحاف في توزيع الثروات؛فهنا أرض عادلة وإمبراطورية يكسوها العلم والقانون والنظام؛كل السيارات متشابهة وكذلك البيوت، فلا تميز لأحد ولا تمايز بينهم.

كان الجو رائعا، لا اعرف هل كنا في فصل الشتاء أم فصل الخريف، فالجو معتدل ونقي، أتنفس (أكسجين) يخلو من عادم السيارات والمصانع، فلا وجود لثقب الأوزون.

اقتربت من عتبة باب بيتي الجديد،وهناك رغبة وحلم أن ألتقي بأمي وأبي وأخوالي وأعمامي وصحبتي.

فإذا برنات ناعمة وصوت يصدح بالمكان بلا جهاز، يسري الصوت من خلاله بل صوت بالمكان وكأنه عبر القمر الصناعي: استريحي قليلا وسنلتقي بك بعد قليل، سنلتقي بأحد الجنان القريبة منك.

رغم توفر كل ما أحتاجه، لم يسعدني إلا الوعد بأن أرى أحبتي فقط، لكن لا أدري لماذا لم أشعر بالتلذذ بما أمتلك أو بالسعادة، بل ملل ما تملكني؛ فالكل سواء، لا تنافس ولا أفضلية لأحد عن الآخر، ولامجهود يبذل لتحصل على مبتغاك؛ بل أزرار وتمنيات، ثم تمتلك ماتتمنى، وكلنا متشابهون، فغابت المتعة.

ألتقط أنفاسي وأنا اتحسس جهاز التنفس الصناعي فوق أنفي وفمي،أجوب المكان ببصري لأجدني مازلت هنا؛حيث الفيروس والصراع والحياة، أخذت وقتا لأعرف لماذا أشعربألم بساقي وكأنني عدت من رحلة طويلة، لم يكن حلما، فالحلم لايأتينا مرتبا ومتسلسلا؛ الحلم يكسر القوانين والمنطق والمعقول.ربما إلهام لقصة ...

رسالة بحبر أبيض

اعتدت أن أتحدث إليه فوق السطور؛ فأنا مكبلة بالخجل وكبرياء المرأة الشرقية التي تعتز بأنها لايجب أن تتنازل لأجل عاطفة قد تشل كرامتها وتكبل احترامها لذاتها واحترام المجتمع لها، لذا أدمنت عادة الكتابة بحبر لايقرؤه إلا من أمتلك الحدس وطريقة التواصل معي، فكانت كل حواراتي معه كلمات تتهادى في جنائن السطور والكتب؛ فأنا أعاني من اشتياقي ونقصي دونه، فبه أكتمل ومعه أتناصف السعادة، وبدأت أسجل رسائلي إليه.

أحسست أن فنجان قهوتي طعمه لايتعرف عليه لساني، لا أدري: هل لرداءة البن أم لأنك لاتقاسمني السهرة؟ لاتشاركي الكافيين.

هل لديك تفسير ؟

اعذرني فالإجابات كلها لديك، كلما استعصت عليَّمقولة أو اختلط عليَّ الطريق، كنت أنت معلمي وخارطتي.

تائهة أنا منذ سحبت كفك من كفي، أتعثر عند كل سؤال،أترنح أمام أي درج لايؤدي إليك.

قالوا:إن هناك اهتزازة ما ترفع كرسي حاكم قريتنا إلى السماء ثم تطرحه على الأرض.

ماتفسيرذلك فيما قرأته من نبوءات الممالك؟!

ربما أستحضر نقاشك معي، فأبتسم.

لعلها بشارة خير،إن الظلم يحتضر، يلفظ أنفاسه الأخيرة.

لا أدري؛ فكل التفاسير لديك، حتى مباراة كرة القدم اليوم كانت أحداثها مبهمة، كنت تعلق لي فلا أسمع سوى صوتك ولا أفقه إلا ماتنطق.

نفق ذلك السياسي البهلوان، قلت لي يوما إنهم سيلعنون في كل كتاب.

مالي ثرثارة هكذا الليلة؟ ولماذا أسمع صوتك يجيب رغم غيابك الحاضر؟ رغم حضورك الساكت؟!

مازلت كما الأطفال ممتلئة بالأسئلة، تتعلق عيناي وأذني بشفتيك؛ يتوسلون الرد،

أتحجج بجهلي لأسمع صوتك الواثق بالأسباب، وأنت عالق هناك بالغيب

تائه في التيه بلا بوصلة، شارف قاربك على الانطفاء والانكفاء.

وأنا كما المشعوذة؛ تحلب النجمات، تستدعي الودع، تلخبط الحروف، تقلب الكلماتلتجلب الأقدار وتعيد صورتك المتيبسة بعد أن غادرتها الروح.

لاتمل من حديثي، لاتتأفف من تساؤلاتي، لاتجزع من جنوني؛ فأنا لم أنضج بعد رغم سنواتي المكدسة بأوراق ومستندات أجهزة الدولة.

مازلت أراني بين يديك طفلة، ألقت بكامل رسالتها في تسجيلات قصيرة وأرسلت بها إليه على الواتساب وانتظرت تلك العلامات ذات اللون الأخضر، الإشعار بأنه تلقى الرسالة بل وقرأها. بعد عدة دقائق، سمعت نغمة الواتساب تعلن عن تلقي رسالة.

كانت كلمة واحدة، ولكنها تحمل معها رقصات عرس ولمسات لوّنت خديها بلون حمرة الشفق؛ كل ملامحها وشهقاتها التي تحررت من صدرها كانت تعلن عن فرحة، الكلمة تبتسم أمامها كما طفلة فاتنة: " أحبك".

واحد ...صفر

واحد،اثنان، ثلاثة، ...، سبعة، ...، عشرين، ...

هذا البرج لم يمر وقت طويل عليه حتى ارتفع ليصل إلى أكثر من عشرين طابقا،إسمنت ورمل وحصى، استطالت كما علبة طويلة ذات مساحات يسجن بداخلها أثرياء يطلون على نهر النيل؛ يشاهدونه من أعلى في استعلاء من تفوق عليه وتملكه بل وصار ينظر إليه من السماء.

واحد،اثنان، ثلاثة،...، عشرة، ... بل نسيت الرقم ... إنه رقم يشير إلى عدد الكافيتريات ومطاعم وكافيهات وأندية تحمل رموزق.م لقدطالت تلك الذراع حتى إنها أخفت ملامح ذلك النهر الحر واعتقلته لنفسها، فلاحق للعامة أن يلمسوا ماءه أو أن تنظر عليه أعينهم؛أصبح لهم حصريا، منذ عدة سنوات حيث كان النهر حرا والشاطئ حرا، كنا نسير هنا، نستند على سوره لننسى الحر، نتناول سندوتشات ونلعب في الجنائن التي تمتد بطوله حتى حلوان، فالمصيف كان رفاهية لانمتلك حتى القدرة على الحلم به.

واحد،اثنان، ثلاثة ... عدد من يبتسمون، قلَّ العدد رغم أنه الخميس والجو يبشر بالربيع والدفء.

واحد، ...، عشرين، ...

تاهت مني الأعداد، فإعلانات المسلسلات التي سيتم عرضها على شاشة التلفاز لاحصر لها وكلها إعلانات فاتنة لا علاقة لها بشهر الصوم، بل تنفي وجوده، لقد اعتاد المصريون تحويل كل مناسبة دينية إلى احتفال ووليمة تتنوع شكلها على حسب المناسبة، وفي رمضان تتعدد المسلسلات وبرامج التوك شو التي تستمتع بالنميمة وأسرار الفنانين، فالصيام إعلاميا عن الطعام والشراب، أما باقي الشهوات فهي تتألق وترتفع أصواتها وتتكشف، أفلام ومسلسلات وبرامج بل وإعلانات تثير في النفوس الحقد والغل والضغينة؛ فهنا إعلانات لشقق فاخرة بحمام سباحة وكمباوند مغلق للأثرياء، وأراضي للتمليك اشتراها أحدهم بقروش ليبيعها بملايين والمستفيد طبقة جديدة أعادت عصر الإقطاع بشكل عصري، وإعلانات للتبرع لمستشفيات السرطان وفشل الكلى والكبد والبلهارسيا على الجانب الآخر، مابين التسول والتفاخر يتمزق المواطن.

واحد،اثنان، ثلاثة،أربعة، خمسة...

عدد إشارات المرورالتي تحاول تنظيم سير السيارات التي تنافس عدد البشر والسائرين على الأرصفة.

واحد، اثنان، خمسة، ثمانية، ...، تسعة عشر، ...

مللت من الإحصاء لعدد رجال الأمن الذين يفتشون المارة بالدراجات البخارية والسيارات الأجرة، فالكل متهم بالخيانة حتى تثبت براءته، فيطول

وقت الانتظار بين الإشارات ويزداد الازدحام والاختناقوالشعور بالاغتراب وأنت بين الأهل.

لماذا أحصي الأشياء؟ لماذا لايكف عقلي عن تسجيل الأرقام؟ لماذا لايسكت فقط ويأخذ قسطا من الراحة بعيدا عن الإحصاء والنقد والمراقبة؟

الطاقة السلبية كانت ذات جرعة عالية يوم أمس؛ حيث فارقني أحد رفقاء الرحلة والحياة، صاحب الشقاء، يبدو أنه ترجل عن القاطرة، فلم يشته مواصلة الطريق واكتفى بأن يهبط أرضا للراحة.

سائق الميكروباص في غضب يسبامرأة تقود سيارتها وفي فمها سيجارة، صبَّ جام غضبه عليها سبابا ولعنات، أفقت من عملية الإحصاء على سبابه غير المنطقي والذي وإن نمَّ على شيء فإنما ينم عن كراهية لجنس المرأة وغضب منها بشكل عام، فالنقمة عليها لم تكن لعداوة خاصة بينها وبين سائق الميكروباص ولا الركاب؛ فهنا في بلدي يعشقون النساء ويكرهونهن في وقت واحد، وكأنه الانفصام الذي انتشر بيننا أو ربما كان حقدا عليها، فهي تقود سيارتها الخاصة ولا تلمس مايعانيه السائق والركاب بجواري من ارتفاع لسعر البنزين والكهرباء والغاز بل والأكسجين، أو قد يكون تنفيسا للغضب؛

فلقد اعتدنا أن نتلقى الإهانة من الأعلى ونصبها على الأضعف: طفلا كان أم امرأة. تلفت حولي لعلي أجد رجلا يدافع عن تلك المرأة التي لا ذنب لها في مشاكلهم التي خلقتها حكومات وفساد يستقبلونه وكأنه القاعدة والعدل هو الشذوذ، لكن لأول مرة أجد رجال بلدي يتفقون على رأي واحد، وكان اجتماعهم على سب تلك السيدة التي اشترى لها زوجها اللص تلك السيارة، وأن ما نحن فيه من لعنات وغضب من الله سببه تدخين تلك المرأة للسيجارة وقيادتها للسيارة.ما اعتدت يوما أن أسكت على ظلم أو أخشى من قول الحق، ولكن هذه المرة اكتفيت بأن أشاهد وأحصي وأسمع لما ينطقه لسان الرجال ومايفصح عما بداخلهم من عقيدة وثقافة، سكتُ وواصلت المشاهدة والإحصاء من شباك الميكروباص.

والآن أنا، عشرة، عشرين، خمسين، ...السلالم أنهكت ركبتي وظهري؛ كنت أقفزها منذ عدة لحظات، الآن استحالت ثقيلة كما وأني أرفع أحد حجارة الهرم الأكبر؛ تعذيبا.

واحد، اثنان...لماذا تتصاعد السلالم معي ولا تريد أن تنتهي وتصل بي إلى شقتي؟

تضع المفتاح في الكالون وتدخل ومازالت الأرقام تصاحبها؛ حاولت أن تستمر في العد، ولكن لا أحد من أبنائها هنا؛ فالعدد هنا هي والصفر.

ضيفة غامضة

أمسك جيتاره وبدأ العزف، وغنى على نغماته تلك الأغنية التي لطالما غناها لسنوات في نفس المكان لناس مختلفة، الليلة صوته له طعم مختلف، وأغنيته ذات صدى مختلف، ابتسامته أضاءت وجهه، فأضفت على طربه شجنا وجاذبية خاصة.

إنها تجلس في مواجهة عينيه؛ تسترق النظر إليه من آن إلى آخر؛ في محاولة للهروب من مراقبة الحضور.

أسندت ذقنها بيدها اليمنى ونظرت إليه، وراحت في رقصة معه، وقدمها لامست كف الرؤية التياتسعت لتمتد يمينا حتى أقصى الشرق ويسارا حتى الأميركتين، والكون كله يشاهد وينصت في خشوع؛ فهم في حضرة الحب والفن...

أفاقت على تصفيق الضيوف وإيماءة من عينيه ورأسه تجيب على رؤيتها له بأنه كان معها في نفس الحلم.

انتهت الليلة، حيّت الجميع،ثم ركبت سياراتها الفارهة وانصرفت.

-هل تعرف من هي، مراد؟

-سأعرف،امنحني فرصة لأتواصل مع مدير المطعم؛ لاشك أنه يعرف من هي!

-لماذا انصرفت سريعا؟هل تعتقد أن صوتي لم يرق لها؟

- لا أعتقد؛ لقد كانت في حالة من النشوة مع صوتك.

- لكن لماذا الاهتمام بها؟ لم أعهدك هكذا!

-أبدا، فقط لاحظت أنها راقية وهادئة وذوّاقة للفن، ونحن نحاول استقطاب شخصيات من تلك النوعية؛حتى تتسع حلقة العلاقات لأجل البيزنس.

غابت عددا من الأيام،ثم ظهرت تلك الليلة ومعها شخص ما؛ كان يرتدي تلك النظارات السوداء، رغم أنه الليل.

جلست واحتست قهوتها، واستمعت له،ثم نهضت منصرفة؛ إلا أنه استوقفها مناديا:

- مدام ...

- نعم.

- أعتذر، لكن كنت أريد أن أتعرف إلى حضرتك؛ فأنت تعرفين من نحن، ولكن مازلنا لانعرف من أنت!

- هل يزعجكم حضوري ؟

- على العكس؛ غيابك يقلل من ثراء الليلة ويفقدها بريقها.

-أشكرك.

- ألن تجيبي ؟

- تاليا.

-تاليا ؟

- نعم.

- أهلا بك،اسمك جميل كما أنت، رغم أني لا أعرف معناه.

- هههههه، ولا أنا، ربما يكون معناه التالية في العدد.

(أرفقت جملتها بضحكة كانت ضحكة عابثة، مناقضة لبراءة وجهها.)

- أتحملين اسما لاتعرفين معناه ؟!

- نعم، فقط أعجبني نطقه،والموسيقا الناعمة التي تصاحب تلفظه، فلم أهتم لأن أعرف معناه.

- فهو ليس اسمك الحقيقي ؟

- بلى، اسمي؛فأنا من اختاره؛إذن فهو أنا.

- وفيلسوفة أيضا؟

- إنها الحياة، تمنحنا الحكمة، سيدي أستأذنك في الانصراف.

-لماذا تتعاملين معي كما سندريلا، التي علقت الأمير بها لتختفي وتتركه وألم الحنين؟!غير أن سندريلا كانت أكثر رحمة منك؛ فلقد تركت له فردة حذائها ليستدل عليها، أما أنت فلاتتركين سوى الفضول.

- جمال العلاقات في غموضها،وجمال النجمة أننا نرى نورها ولا نعلم حقيقتها، أفضل أن أظل بوهجي، تحياتي.

ثم تنصرف في عجلة وكأنها خافت أن يغوص في داخلها فيكتشف سرها الذي لطالما أخفته حتى عن نفسها.

في اللقاءالذي اعتاد أن ينتظم في حضوره للعزف والغناء في نفس الكافيه؛ قرر أن يعتذر عن الغناء إن حضرت السيدة الغامضة والتي تربعت على عرش قلبه؛ليتنظر بخارج الكافيه ليتبعها لعله يلتقط عنها خبرا، فقد تكون زوجته في المستقبل.

اختفى خلف شجرة بمجرد رؤيتها، وانتظر ...

جلست وأخذت تلتف يمينا ويسارا تبحث عنه؛فهي تحضر لتستمتع بصوته وبرؤيته.

سألت الويتر عنه، ليجيب أنه شعر بوعكة وأنصرف. كسا وجهها الحزن ونهضت للانصراف،

ركبت سيارتها وتوجهت إلى بيتها وكان يتبعها؛ لتهبط أمام إحدى العمارات؛ تركب المصعد وهو مازال مراقبا بسيارته من بعيد.

يهبط من السيارة يتوجه إلى رجل الأمن الحارس للعمارة يسأله عنها،

يجيبه بكلمات ظهر مدلولها على وجهه الذي ظهر شاحبا وحزينا؛هناك شيء ما صدمه أو نزل عليه كما الصاعقة.

تكرر ذهابها للكافيه لعلها تلتقي به أو تسمع صوته فهي لم تطلب منه أي التزام أو وعدا، بل كانت مكتفية بتلك اللحظات التي كانت تقضيها في الاستماع لصوته، ولكنه لم يأت.

سألت عنه، قال لها الويتر إنه لم يعد يأت، واعتذر عن الغناء هنا لظروف خاصة.سألت عن عنوانه، لم يدلها أحد عليه.

ركبت سيارتها وتوجهت إلى عملها، نزلت بأحد الأندية الليلية وهناك على يمين النادي بوستر كبير لها وهي ترتدي بدلة للرقص الشرقي، وضحكات لكل من يشاهدها، قال أحدهم: "رغم أن سعرها غالي إلا أنها أنثى كما يقول الكتاب."

فستان ما زال ينتظر ...

أمسكت بفستانها الجديد، وضعته على جسدها أمام المرآة، وظلت تتأمل نفسها وتتخيل رد فعله حين يراها به، ثم طبقته ووضعته بكيسه، ثم رصته بجانب ما اشترته من ملابس وقمصان وحقائب ...

مر اليوم العام الأول على الانفصال، وبدأت ملامحه تبهت بذاكرتها، حتى لمساته طمست آثارها من فوق جسدها،وتبقى فقط الأمل في لمسة جديدة بشعور جديد كما كانت أول لمسة منه في أول لقاء.

جميعنا يفتقد إثارة أول لمسة وأول قبلة وأول لقاء حب سريري؛فكل البدايات شيقة ومذهلة، كما جمال الطفل والقطة الصغيرة والنبتة الصغيرة.

عادت لتتصفح رسائله القديمة ولهفته عليها، وصورهما معا، يحتضنان كفيهما حتى لم يستطع أي مشاهد للصورة أن يفرق بين أي منهما يدها وأيها يده!

لكنها جبنت أن تتواصل معه؛ فكبرياؤها يمنعها، أما هو؛ فتؤرقه نرجسيته ويتعالى أن يعترف بشوقه وحنينه؛ ورغم تعدد علاقاته إلا أنهلا واحدة استطاعت أن تمحو شعوره بالأمان معها ولا إحساسه بالسلام في حضورها.

هكذا عانى اللهفة وتأنيب الضمير لأنه يخون ذكراها، وخشي أنه بذلك قد زاد من المسافة بينهما وأنه لايستحق الرجوع إليها؛فعقوبته أن يظل محروما من جنتها.

وخافت هي إن بدأت الاتصال أن يتعالى عليها وينفر من الرجوع؛ فربما بدأ علاقة وقصةحب جديدة، إنه الخيال الذي يجعلنا أحيانا نبدع ونبتكر، وهناك الخيال الخرافي الذي يخلق أحداثا من صنعه لاعلاقة لها بالواقع؛فيكبح خطواتنا ويحرمنا من السعادة؛ نقدم ساقا ونؤخر أخرى حتى تنفد فرصنا ونعيش الفقد.

سنة تلو سنة وهي تتأمل ملابسها التي اقتنتها للحظة لقائهوحرّمتها على جسدها، وعطر تطاير متحررا من محبسه فلافائدة منه إن ظل قابعا بقارورته كما المعتقل، وينتظر هو أن يرن الموبايل ويظهر على الشاشة رقمها؛ اشتاق إلى صورتها وإلى كلماتها التي تنشرها بصفحتها تناجيه في صمت؛ يفتح النت ويدخل الصفحة ليقرأ النعي الذي نشرته ابنتها على الصفحة وصورتها وهي تبتسم له،إنها الصورة التي التقطها لها وهي تجلس أمامه بالكافيه، وهي تنظر إليه وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة تملؤها السعادة، وهو الآن يراها مبتسمة،ومازالت تنظر إليه في لهفة المشتاق، ولكنها صورة بلا جسد أو صوت، بقيت الصورة تنتسب إليه

وغابت هي عنه وتناثرت لحظاته معها كما شذرات الزجاج ذات لمعة ولكنها حطام، ليظل فستانها حبيس خزانتها وحقيبتها المجهزة ليوم لقياه، تعاني الانتظار وحيدة، ويظل هو يجتر الذكريات، يعض على شفتيه لحمقه حين ظل ينتظرها، وكأن الطرق هي من تذهب إلى أصحابها والبشر أرصفة انتظار.

علبة المناديل

شيخ بلحية بيضاء وشعر أبيض يغطي رأسه، يرتدي جلابية رثة متسخة، يقف بجوار محطة رمسيس يبيع المناديل الورقية.

يقترب منه شاب يقف أمامه في ذهول، يرفع الشيخ ناظره ويقف خجلا، ينصرف الشاب ويهرع وراءه الشيخ متعكزا على عكازين.

يشير للأتوبيس، يقف له، يصعد، يطلب منه الكمثري الأجرة، يخرج من جيبه كارنيها خاصا بالمعاقين.

يهبط من الأتوبيس حاملا لكيس المناديل، يفكر في إلقائه، ولكنه يشعر بأنها خسارة،

يشير إلى أتوبيس آخر، يصعد لبيع ماتبقى معه من أكياس ويهبط ومعه المناديل كما هي وعدة جنيهات أثارت بداخله شهوة المكسب، فيصمم أن يبيع ماتبقى معه، يشير إلى أتوبيس آخر، يصعد لبيع المناديل ويهبط ومعه عدة جنيهات، ومازالت الأكياس كما هي، يصمم على بيع ما تبقى معه، وهكذا مر اليوم وهبط الليل ومازال يتنقل بعكازتيه

بين المواصلات العامة وإشارات المرور لتزداد الجنيهات وتتبقى معه الأكياس، وتزداد بداخله شهوة المكسب السهل.

يعود إلى البيت، لابد أن تتزاحم بداخلك الأسئلة حين تشاهد بيته؛ أنيق، به كل الكماليات، منظم بلمسة أرستقراطية، وأبناء يمتشقون الوسامة والذكاء.

خرج أحدهم الذي قابله في رمسيس يبيع المناديل متسولا الشراء مقايضا دعواته بعدد من العملات، مستعرضا إعاقته وشيبه، وسأله بحثا عن مبرر: "لماذا يا أبي؟"

تلجلج وكأن المفردات خجلت أن تخرج من فمه غير مقتنعة:

- لقد وصلت لتلك الحياة وهذا المستوى بعد كفاح وتعب وشقاء، وتمكنت من ادخار مبلغ في البنك ومعاش أستحقه، ولكني أخشى الغد؛ أرتعب من فكرة الفقر ومن نفاد ما ادخرته، وطلباتكم لاتنفك في تزايد، وأقسمت ألا أعود إلى الحاجة ثانية، وألا ألمس ما ادخرته، وقد كبرت وتقلصت إمكاناتي إلى دعوات حفظتها وأكررها، وعلبة مناديل تستمر معي شهورا أبيعها ولا مشتري لها؛إنهم يشترون دعواتي.

لا، بل يشترون تذللي لهم ومنحهم الشعور بالسيادة حين يسحب أحدهم يده من جيبه بها جنيه أو عدد من العملات المعدنية، أمنحه فيها الشعور بالاستعلاء والتسيد،

وهناك من ارتكب من الآثام جبالا ويدفع من ماله لي في رجاء أن يشتري جسده من الجحيم؛ إنها صفقة رابحة لكل منا؛ أنا أعود بمصروف اليوم ولا أقترب من مدخراتي التي كونتها على مدار سنوات شبابي، وهم يعودون بإحساس الرضا من الله والتعاليوالشعور بالتحرر من الخطايا؛إنها تمثيلية نحاول أن نجيد فيها دورنا يوما بعد يوم.

- لا أجد ردا؛ أبي، ما تعيشه مرض لاعلاج له ولابراءة منه؛ فلقد أدمنت دور العبد الذليل، دور المعاق، وتجد لذة في الإهانة والذل، لايشغلك مظهرنا أمام الناس ولا حتى نظرة الناس إليك، صرت كما الطفيليات تحيا على بقايا الأحياء.

مد كفه صافعا ابنه على خده، لكن ابنه لم يبك، بل هو من بكى.

انصرف الابن إلى غرفته وقد لملم ملابسه وخرج لايلوي على أحد، إلا أنه أوقفه قائلا: هذه الملابس قد اشتريتها أنت من إعاقتي وتسولي.

ألقى الشاب مابيده من حقيبة قائلا، وأنا لن أغطي جسدي بملابس حرام، لولا أنه عيب أن أخرج عاريا، لخلعت لك ما تبق من ملابس، ولكن وعد أني سأعيدها لأي مار بالشارع ...

رفع رأسه وتوجه إلى الباب وهناك صوت ينادي:ابني لاتتركني بلا ساتر عارية منك؛ أبوك ضيق عليّ الحياة بخلا وتقطيرا وهو المكتنز ثروة، لقد

ألبسني ثوب الحاجة وهو الميسور، مزّق الستر على جسدي فأهان إنسانيتي وهتك كرامتنا جميعا، فلقد التقط له أحد الجيران صورة ونشرها على الفيسبوك ففضحنا، لقد تحملته وبخله سنين طوالا فقط لأكمل مهمتي في تربيتكم، ولكن الآن أدركت أنني شاركته تلك الخطيئة؛ فلقد شجعته على الخنوع والذل، قاسمته ماله الحرام، لقد كان يستغل إعاقته في شراء سيارات خاصة بالمعاقين ليبيعها ويحوّل أمواله إلى البنك ويقتر علينا، كم من مرات يتسول لنا الأدوية من التأمين الصحي ليبيعها إلى الصيدليات ويكتنز عائدها في البنك الذي لا أعرف أين هو، ولا أعرف كم حسابه،أبوك غني في رصيده بالبنوك، فقير حتى الفاقة في الكرامة؛ لقد ربأكم وأحمد الله من معاشه القليل الحلال وأحمد الله أن ما اكتنزه في الأرصدة هي أمواله الحرام،أبوك مريض ولاعلاج له، لنترك له ثلاجته الخربة وحياته المنبوذة ونحرر أنفسنا من قبضته، دعه ومناديله التي لاتباع وعكازه الذي صار أغلى عنده من أولاده.

نظر إليها وهو مُطأطَأ الرأس وعيناه لاتنظرانإلا لأقدامهم التي تغادر الشقة، حاول منعهم، ولكنه كان موعد نومه ليصحو ليلحق بالموظفين؛ فالغد موعد قبضهم، تحسس كيس المناديل وجده منتفخا لم يفقد الكثير من مخزونه، احتضنه وحمد الله ونام.

مشهد لم يتم

المشهد كان داميا ومُركَّبا وتتصاعد فيه الأصوات والصرخات، وأسفل منصة المسرح؛الذي كان منعزلا بفاصل من الزجاج، كان واقفا ضاما ذراعيه، محتضنا صدره وذاته، وقف صامتا وابتسامة لاتتم عن معنى محدد تفترش وجهه؛ ضمة الذراعين هذه لها من المعاني الكثير: هل كانت غضبا؟ هل كانت تأملا؟أم كانت صبرا وانتظارا لرد فعل ما يتوقعه؟ أم كانت انبهارا وتأملا لجمال المشهد؟ ظل واقفا في صمت ومتابعة وليس ترقبا لجديد؛ فملامحه تكشف لنا أنه يتوقع الأحداث؛ فلادهشة ولا تعبير على وجهه يشير إلى التفاجؤ.

كان أحد المشخصين متوسطا خشبة المسرح،يفرد ذراعه ملوحا ومهددا والجمل تخرج من فمه كما الرصاص متتالية وقوية،مرعبة ...

- أنا المنقذ ... يد الرب التي تبطش، وسبابته التي تشير إلى السماء لكي تنزل غيثها فتنبت الأرض فلا تجوعوا ولا تتعروا، أنا صوته الذي ترعد له السماء وتبرق فتنزل لعنته؛ لتصيب من يرفض ويعترض، أنا من إن تلاقت يداه حول رقبة أحدكم، فهي نهاية دوره على الأرض وموعد انتقاله إلى الثرى والنسيان ...

يستدير في كبر بكامل جسده ومازالت رقبته لاتحيد ولا تلف، بل ثابتة في شموخ وكأنه يرفض إلا أن يستدير الكون له ولا تستدير رقبته، كما الزرافة في شموخها وغرورها؛ليصفع الشاب المكبل بالأصفاد،ثم يشير بإصبعه للسياف، ثم إلى المكبل بالأصفاد، فإذا بسيف جلاده ينزل على رقبة ذلك الشاب وتفصلها عن جسده والجموع تكبر للعظيم العادل ...

"اقتلوه،اذبحوه.".

يهمس رجل من بين الحشد: "ولكنه مظلوم؛ لقد كان يسأل ملككم الطعام لكم، يسأله الكف عن جمع الضرائب من الفقراء وعن أراضيكم التي أكلها القحط وعن بيوتكم التي تشققت عطشا من جفاف النهر".

يرد أحد التابعين، الذين يبررون دوما للملك: "لقد خلق الرب الناس درجات: منهم السيد ومنهم العبد، ولقد اختارنا لنكون عبيدا،إنه قدرنا ومشيئته، ولا راد لما خُطَّ في الكتاب، ونحن لنا في الحياة الأخرى الجنة ولهم العذاب، لا يجب أن نعصي الإله والملك".

- ولكنكم عاونتموه هو وشباب البلدة على العصيان ودفعتموهم للثورة على الملك، والآن تتهمونه وهم بالعقوق والكفر وتنادون بقتله؟! فلتخجلوا من أنفسكم ولتطلبوا لأنفسكم الموت؛ فأنتم حقا لاتستحقون الحياة؛إنكم خونة.

تضع إحدى المواطنات كفها على فمه تمنعه من الكلام؛تمنع عنه الموت، وتمنع الحضور -والذي بينهم الدسيس والخائن-أن يستمعوا إلى قوله الحق، وتسحبه إلى الخلف وكأنها تواريه عن الظهور أمام الكاميرا ودور البطولة، فالبطل غالبا ماينتهي دوره مشنوقا أو محروقا أو مذبوحا؛ ليستكمل حياته سطرا في كتاب التاريخ، وبضع زفرات من عيون خاذليه ...

يخرج من بين الزحام طفل؛يتجه نحو جثة من تم إعدامه بعد انصراف الملك وركبه، ويمسك برأسه؛ يتأملها مقبلا خده، محتضنا لها، ثم يأخذها وينصرف، في مشهد سكوت للعامة وقد ارتدوا الخفيف والممزق من الملابس وأقدامهم حافية، كانت خطواتهم كما الكنجاروا؛ يقفزون في حركة أشبه بحركة البهلوان،ليضحك المتفرجون، ولكنها كانت قفزات من سخونة الأرض ولسعات الشمس، خطواتهم كانت مضحكة مبكية، تعالت أصوات الجمهور من الضحك،وصاحبت ضحكاتهم قطرات من الماء المالح تساقطت من أعينهم لتترك خطوطا من الملح على الوجوه.

(تغلق الستار في انتظار الفصل الثاني.)

خلف الكواليس، كان هناك صراع بين الممثلين واتهام للمشخص؛ الذي يلعب دور الملك أنه قد تجاوز حدود الدور،وتعدى على الحوار،وارتجل الكثير من القسوة والسباب، بل وامتدت يده لتصفع زميله، وهذا خارج عن النص.

كانت هناك شاشات غير ملموسة، أحدث ما تم اختراعه،مسجل عليها حوار كل ممثل ولايراها غيره؛ يشير إليها بإصبعه فيظهر الحوار ودور كل ممثل.

ومازال المخرج يقف خلف جدار زجاجي كبير يتابعهم من خلاله، يراهم ويسمعهم، أما هم فيرونه ولكن يتلقون التعليمات في شكل إشارات يحفظونها ...

يدافع المشخص عن نفسه، بأنه أتقن دوره وأجاد لعب دور الحاكم القوي كما يراه على الأرض،وكما درسه في كتب التاريخ، وأنه لاحاكم دون تعالٍ ورفض للنقاش مع العامة أو المستشارين؛ فلابد أن يكون الحاكم ديكتاتورا حتى يحمي العرش والأرض من العامة والغوغاء.

لتتوجه إحدى المشخصات، لتواجه الجدار الزجاجي؛ملوحة للمخرج بإشارات يتلقاها ويفهمها؛بسؤال عن رأيه لما قام به الملك أو المشخص؛ فلاترى منه إلا ابتسامة وصمتا،ويشير بيده إليهم للصعود على خشبة المسرح، فلقد حان موعد الفصل الثاني.

يفتح الستار بني اللون عن مشهد آخر ويوم آخر؛ أحد بيوت العامة وصوت الأطباق وحركات الأسرة استعدادا لتناول وجبة الإفطار، وضحكات الأطفال وهم يجرون في لعبة المسّاكة ...

أحدهم يلعب دور البطل الثوري ممثل الثياب، يمسك بعصاه، تشرق من عينيه الشجاعة والإصرار، يجري خلف رجل الأمن الذي يمسك سيفا من ورق ...

جلس الجميع حول مائدة الفطور والتي كانت كما الصحراء يتناثر عليها على مسافات متباعدة نباتات شوكية لاتسمن ولاتغني من جوع، نظر الأولاد إلى المائدة متسائلين:

"أين الخبز يا أماه؟ وأين الفول أو العدس؟

أجابت: "من أين لي الدقيق؟ فلقد جفت الأرض، ونفد مخزون الدقيق والقمح لدينا؛

لم يتبق لنا إلا تلك اللقيمات المتبقية من موائد سابقة، جمعتها لكم.

سأل أحد الأبناء أباه:لماذا هللت لذبح من ثار ضد الملك طلبا لرفع الضرائب عنكم وعن توفير القمح الذي يخزنه الملك لنفسه ولخاصته ويمنعه عنكم، بل خرجتم شامتين في قصلرقبته؟

ينهر الأب ابنه ممددا له بالضرب، قائلا:إياك أن تنطق بذلك أمام أحد، هل جننت؟أخشى أن يحاكموك ويذبحوك مثله؛ فلقد عادت الحوائط بأذان، تتجسس وتتنصت لما نقول خشية التآمرضد الملك والوطن.

قال ابن آخر: يا أبتي، نحن موتى، سواء بالشنق أو بالذبح أو بالجوع،ولقد سمعنا من رجل الدين أن الموت ماهو إلا جسر إلى عالم أفضل؛ حيث العدل ومائدة السماء التي لن نجوع معها ولا نتعرى، لقد رأيت وجه الثائر ضاحكا وكأنه لم يشعر بالسيف الذي ذبحه وكأنه رأى"المدينة العادلة".

سكت الأب وأحنى رأسه ناظرا إلى حجره الخاوي من المال والطعام بل والكرامة،

خرج الأولاد الصغار،وقد نسوا الجوع، وقد امتلأوا بما حفظوا من كلمات عن معلمهم وعن الثائر، عن الكرامة والعدل والمساواة، فلا حقيقة لقول العامة؛ أنهم خلقوا ليكونوا عبيدا وخدما للسادة؛ فلقد نظر الأطفال والصبية في مياه النهر التي أوشكت على الجفاف فرأوا ملامحهم هي نفسها ملامح الملك وخاصته، إلا أن الملك شحذ حنجرته ليكون صوته أعلى وأقوى من صوت الجميع، ليرهبهم ويثنيهم عن المطالبة بنصيبهم من الأرض التي وهبها لهم ولهالرب، ولولا البطانة التي تلتف حوله ومعها سيوف ومفاتيح السجون؛لما جرؤ أن يتعال عليهم ويهددهم بسلب حقهم في الحياة، وأنه هو من يحدد معنى الحق والحقيقة، ومن يحدد معاني كل مفردات اللغة التي ينطقها شعبه؛ لقد ساعده آباؤنا، بل هم من منحوه تلك الصلاحيات ومن سلم له ما ننتجه من حديد؛ ليصنع منها أصفادا وسلاسل؛ ليقيدنا بها. إنه قد خزّن لنفسه وحاشيته

كل ما أنتجته حقولنا من قمح وأرز بل وخزّن مايكفيه من ماء؛ فقد أنشأ لنفسه مدينة تليق به بعيدا عن العامة ليتركهم في الجوع والقحط ويهرب بنفسه وعمالته حيث الرخاء.

يغلق الستار البني على مشهد الأطفال والصبايا وهم يتسيّدون المسرح ويقفون صفا في مواجهة الجمهور وقد تباعدت المسافة بين أرجلهم ضامين أذرعهم، ورفعوا رؤوسهم في شموخ وإصرار ...

وكانت نظراتهم تتجه إلى مخرج العرض وقد علت وجهه تلك الابتسامة، وعلت وجوهم تلك النظرة التي تنم عن اليأس وجملة أنطقتها وجوههم:إما العدل أو الموت.

صفّق الجمهور، ولكن تملكت الجميع نظرات الاستغراب والدهشة؛ فلم ينته النص ولم يكتمل،ولم تكن هناك جمل يقولها المشخصون الأطفال أو الصبية ليُفهَم منها باقي الأحداث، ولم يتحرك المخرج من مكانه، بل ظلَّ محتضنا نفسه بذراعيه وقد علت وجهه ابتسامة ذات تفسيرات عديدة، يختلف كل منا في فهم معناها أو مبررها؛ مخرج غامض.

ليغلق الستار دون أن يفتح لاستكمال المشهد الثالث، ليترك للجمهور حرية توقع أحداثه ...

عيد الأب

زارتني ومعها كارت صغير وحقيبة هدايا أدخلتها إلى غرفتي، فأنا في حالة صحبة لنفسي اليوم؛ فلقد اعتدت أن أجالسها يوما من كل شهر. كانتا عيناها تلمعان وكأنها تعيش قصة حب،

سألتها: لمن تهدين هذا الكارت ومن هو ذلك الفارس؟

ضحكت ضحكتها الناعمة ذات صدى الاتزان النفسي الذي أفتقر إليه،

- بابي، أبي، بابا، أبويا، أو كما تعودت أنت أن تناديه.

أجبتها: لم أناده.

"إنها كلمات نلوكها؛ تمنح صاحبها صكا؛ للاعتراف به وبمهمته الجديدة؛وسام من السماء يتمناه الكثيرون".

- لماذا لاتكتبين أنت ما تشعرين به له؟

- أنت شاعرة وأديبة والكلمات صنعتك.

- الكلمات صنعتي، ولكن لابد أن أعايش الحالة؛ حتى تخرج الكلمات صادقة؛وأنا لم أختبر إحساس البنوة لأب، عشت ابنة لأم، أعظم أم.

"هناك ألقاب لا نحصل عليها إلا بموافقة السماء، ألقاب معها نكتمل،لتواصل هي كلماتها التي كانت كما قصص نتلوها عن الأساطير".

أبي: كلمة بها يرتفع صوتنا أمام الغريب في شجاعة، بلاخوف؛ فهو في الظهر كما الجدار العازل؛ سند؛ نطلب منه ونتمنى بلا حد أقصى؛ فجيبه كما البنك المركزي؛ لايفلس، لاجبن ولاقلق، هوهناك يمتطي فرسه في الغرفة المجاورة، على أهبة الاستعداد دوما؛ لحمايتي.

أخط بقلمي ملامحه حتى أستدل بها على فارس أحلامي الذي حتما يشبهه، فهو كما الأبجدية؛ بها نتواصل مع المجتمع والبيئة حولنا، بل والأحلام.

هكذا قالت لي صديقتي عن المترادف لكلمة:"أبي".

أما أنا، قدعشت في بيت؛غرفته كانت خاوية منه،كرسيه كان شاغرا،وحينما تزورني الأحلام، أراه وقد سرق مني الأمان، غافلني واغتصب مني حصاني،بل وترك فارس أحلامي كما الشخابيط، بلا ملامح، لم ير سوى نفسه، لم يسع ليحقق رغبات إلا رغباته، أنجبنا ثم تركنا لها؛ لتمارس هي دور المعيل والأم الحاضنة، وانصرف هو ليتذوق النساء؛يتزوج البيضاء فالسمراء فالطويلة فالقصيرة، كان كمن يتلذذ بطعم الفاكهة،يمل سريعا من الالتزام ومن المسؤولية،فيحلق كلما وجد طيرا جديدا بطعم مختلف.

اختزل اللغة في ضمير "أنا" الذي خلا من الضمير،فلم أسمع منه "نحن"، بل "أنتم". كان لايرى إلا صورته في المرآة،وإن مررنا أمامها كنا كما الشبورة التي تغشى الرؤية؛فيثور غضبا: "اختفوا من الصورة".

لايعيرنا أدنى انتباهه، حتى إننا لم نتفوه لا بكلمة بابا ولا أبي ولا حتى أب، فلم ينل منا صكاعتراف به، ولم يمنحنا هو بطاقة هوية، بل سلبناها عنوة.

غريب أن تعيش في نصف وطن ونصف بيت ونصف جسد، غريب أن تسير في الحياة بنصفك مائلا وظهرك منحنيا، تبحث في ذاكرتك العرجاء عن حدث كان هوبطله؛ فلا تجده. غريب أن أختبر الكراهية حين ألتقي بمن يشبهه،من له مثل عينيه أو نفس أنفه. غريب أن أصم أذني حين أسمع صوتا يشبه صوته، غريب أن أسعى لعمليات التجميل لأنزع عن جسدي أي جزء يشبهه.

ليس غريبا حين أتهجى حروف اللغة لتبدأ ب "ألف"،لتقفز فجأة مجتازة كل الأحرف لتحتضن "الميم"في فخر وعزة. عندها تتراقص الابتسامة على وجهي، وتتوافد كلمات كما معزوفات خالدة ترسم بهاء الربيع والسلام.

لايحق له صديقتي أن يتقلد شرف الأبوة التي التقاها صدفة، أوأن أمنحه شرف بنوة اتهمها يوما بأنها عارٌ أصابهوقيدٌ يدمي معصمه، فحوّل بيتنا إلى أطلال، لاغطاء يقينا من البرد إلا جلباب أمي؛التي كانت تخبئنا تحته حتى كبرنا.

أنا ابنة أمي كما المسيح ...

لملمت أوراقها ونظرت لي مشفقة عليَّ، حملت هديتها وغابت، وسؤال بلعته: ما المعجزة في أن نخلق لأبوين ثم نعيش بشق مائل يفتش عمن يسنده ليعتدل ويقف لمواجهة الحياة وهو سوي النفس؟!

جيفارا

كانت من عشاق جيفارا الطبيب اليساري الثائر؛ الذي ينشد الحرية للإنسان رجلا كان أم امرأة، مزارعا كان أم ملكا.

نظرت إلى صورته الملصقة على الجدار الأزرق؛ راقت لها ملامحه ونظرته التي تواري أسفلها الأرق والغضب والثورة، بل الإحساس بالمسؤولية، وأمل في الغد أن يأتي حاملا معه بروتوكولات الحرية والعدل.

ألقى عليها تحية المساء، أجابت عليه بوجه مبتسم؛ مرحبة؛ تدعوه بها إلى مواصلة الحديث، فلاشك أن جمله التي يركبها تروق لمسامعها وقلبها.

توالت الأحاديث، وباقات من الأشعار؛ تحمل شعارات؛ جميعها تصرخ بصوت الثورة، تحمل راية الإنسان؛ صارت صورته مصاحبة لها في طريقها إلى العمل والسوق والمقهى؛ حيث لقاء الأصحاب، كانت حاضرة بجسدها، مسافرة مع صورته محلقة بالآفاق إلى الغد.

تسرع الخطى إيابا إلى البيت في لهفة إلى رسالاته العاشقة،المسطورة شعرا والتي تتشبع عطرا بعبق عرقه الثائر،وجسده الذي لايعرف الماء؛ لانشغاله في تحطيم القيد الدامي حول رقبة الوطن.

لم تشمئز منه ولم تأنف،بل كانت تعطر أناملها بأن تغمسها في خيالها السابح في صورته؛ وكأنها تطهر روحها من سلبية أغرقت فيها مع أمة لا

ترفع رأسها إلا حين تشاهد رقصا أوتستمع إلى أغنية وطنية؛ استعاضوا بها عن الحرب دون الشرف.

إلى أن حضر يوم ضاقت بصبرها واشتياقها إليه، طلبت منه أن يرسل لها صورته، فهي تتحدث مع صورة جيفارا،ومن حقها أن تتعرف على من سلب عقلها ومن أغرقها في الشعر وجعلها ترسم وشما على ذراعها يحمل صورته.

يتردد في تلبية طلبها متذرعا بمركزه وخطورة وضعه الثوري، ليستجيب لها بعد إلحاح ومثابرة منها، ويحدد معها موعدا للقاء، فهو سيحضر زائرا لبلدها.

يحين موعد اللقاء، تنتظره بالمطار، بعد أن حمل معه زهرة صفراء لكي تتعرف عليه، فهواللقاء الأول على أرض الحقيقة بعد عدة شهور من لقاءات على الشاشة الزرقاء.

تراه قادما وعيناه تتفحص في الوقوف باحثا عنها،هي كما صورتها التي كانت غلافا لصفحتها، أما هو فكان رجلا غريبا عنها،كان رجلا تعدى الأربعين بقليل، ممسكا بسيجارته، نحيلا،

بأسنان دفنها الدخان تحت لون أسود،بلون فحم المحارق،لفمه رائحة كريهة؛ أدركت أنها رائحة الخمر الذي تجرعها على الطائرة.

جلسا بأحد الكافيهات بأرض المطار، وهي صامتة تتأمل هذا الغريب المغتصب لصورة حبيبها،

حاولت أن ترحب به بأن ترسم بسمة ترحيب كاذبة على وجهها،لكنها كانت مصطنعة بما يكفي لأن يفهم مابداخلها من رفض، ولكنها أقنعت نفسها في حوار بينها وبين نفسها صامت، بأن تمنحه فرصة أن يعرفها بنفسه؛ فربما يكون كما خلقته بداخلها.

- من أنت؟

- هل هو سؤال تعنينه أم سؤال ينم عن رفض؟

- لا ترجمة لسؤالي، إلا أنني أريد أن أعرف إلى الرجل الذي أمامي ومن جاء إلى بلدي ليلقاني.

- أنا من عشق صورتك وروحك، أنا من جمع أحلامه في حقيبة وحضر بكل ثروته إليك،بكل مشاعري وأحلامي واشتياقي.

- وما الشرف في أن تجن بي عشقا؟

- حبي لك هو الشرف في كامل وجوده.

استرسلت: من أنت بالنسبة للنساء ووطنك المسروق؟

-

- عشت بينهن مستأجرا لأرحامهن في سوق كبير للنساء وأندية الليل، فما أمتع أن نحيا في أحضانكن!

- وأشعارك عن الفارس الغاضب الملثم،المدجج بالرفض، وقيم غزلتها في قصائدك؛ لتنصر الحرية؟

- أنا ثائر صوتا وخطابة، أما الثورة فلها جندها وجيشها، نحن نكتب ونُشعِر،نُلهب الحماس في أرواحهم والغضب في أجسادهم؛لينهضوا، ليموتوا فداء الوطن، فنحن سيفنا القلم، بارودنا الكلام، كل له دوره، فأنا أثمن من أن أضحي بعمري وهناك من ينوب عني.

قامت من جلستها؛التي أوجعت جسدها،وتململت زهقا من حواره، نهضت منصرفة دون تحية أو حتى وعد بلقاء.

نظرت إلى صورة جيفارا الموشومة على ذراعها مبتسمة، احتضنت ذراعها وجيفارا،

عادت لأرض الواقع لتلغي حساباته من على الشاشة الزرقاء ومزقت رسالاته المنمقة المصطنعة المخبئة لنفاقه،بللتها في الماء وصبتها لتسقي به الزهور المقيمة بشرفتها.

رنّ كثيرا على رقمها،وكان من اللائق أن ترد؛ فلقد اعتادت أن تكون حازمة وقراراتها قاطعة.

- هذا الرقم تغيّر كما تغيرت حقيقتك، فأنت لم تكن إلا شخصا مغايرا لمن أحببت، أنا لست أنثى من سوق النساء.

سأخرج لألحق بالمتشبثين بالبندقية التي بارودهارصاص...

ولتعد أنت إلى سوق الكلام.

حوائط باهتة

فتح لها الباب بعد سنوات غابت فيها عن بيته وحضنه، يشتاق إليها وإلى حضورها الذي أعتاد أن يملأ فراغ حياته وخواء غرفه،دخلت ومدت يدها بالسلام، أمسك يدها في حب وبقوة وكأنه يخشى أن تضيع ثانية من يده، قبّل جبينها، حاول أن يمد شفتيه ليقبل شفتيها، ولكنها بنت حاجزا بيدها بين شفتيها وشفتيه.

- أنرت بيتك حبيبتي، ياغالية.

- تسلم.

اتجهت للكنبة المجاورة لباب الشقة، لكنه أمسك بيدها متوجها بها إلى غرفة المعيشة، حاولت أن ترفض وتقنعه بالجلوس بجوار الباب، ولكنه صمّم على دخولها ليبعد بها عن الباب الذي يُقرّب من موعد انصرافها ويُقصّر المسافة بينها وبين الرحيل، وماقد يصدر منهما من نقاش ربما يعلو ليصل لأسماع الجيران.

جلست على (الفوتي) المنفرد؛ حتى لاتتيح له فرصة الجلوس بجوارها.

تجولت بعينيها داخل الغرفة وتأملت كل ركن، وجلس هو صامتا يتأملها بكل تكويناتها وملابسها وتفاصيلها.

- لم يتغير شيء بالبيت، كما هو وكما نظمته، لكن هناك بعض التغيرات البسيطة.

- ماهي ؟

- الألوان، باهتة، ضاعت الملامح الربيعية للأغطية والحوائط، وكأن البيت يشيخ.

- بالفعل؛ فلقد غادرته الروح لعدة سنوات، ولكن هاهي تعود.

- لقد طلبت أن تقابلني ورفضت أن نلتقي في أحد المطاعم، وأصررت على أن نلتقي هنا، وها أنا قد جئتك ملبية دعوتك، ماذا تريد أن تقول ؟

- هل تعتقدين أن التواصل بيننا يحتاج إلى الكلمات ؟! أعرف أنك تفهميني دون كلمة، كنت لي كما الأم، تقرأ ما سطر على جبين أبنائها وبداخل صدورهم بل وما يدور داخل أعينهم.

- هذا لأن ما يحرك قلب الأم هو الحب، الانغماس داخل كينونة أبنائها الذين هم قطعة منها،

لكن حين يحدث الانفصال ومغادرة الحب لقلوبنا، تُخلق الغربة، الاغتراب، فيسوء الفهم ويصعب قراءة الإشارات، ابتعدنا سنوات وكل منا خلق عالما له جديدا، وزادت الدوائر، واتسعت الفراغات بيننا، فكيف أقرؤك ؟

- أريد أن أعتذر لك عمّا صدر مني، وأريدك أن تغفري لي زلاتي التي أوقعت بي في أرض بعيدة عنك، لنعد.

- أعود؟! هل تعلم كم مرة انتظرت عودتك؟ وكم عدد الساعات والأيام التي كنت أحصيها استعجالا لعودتك؟ كنت أتلهف على انقضاء الأيام التي تبعدني عنك،أملا أن تلقي بك بين أحضاني حين تقترب المسافة وتضمحل الساعات.

بكيت كما لم أبك عمري، كنت أتلصص على الجدران حتى أتحسس عنك خبرا، كنت أرى صورتك معها وضحكتك تملؤ الفضاء وتتكثف كما الغبار الرمادي ليسقط فوق رأسي لعنات حزن ومطر وغضب، كانت أيامي كلها غامقة اللون وكأنني أعيش ليل ألاسكا الطويل، غير أنه بلا نهار،عيّرتني بحبي، عيّرتني بعطائي، عيّرتني بإخلاصي. كم كنت محبة! وكم كنت أنت شقيا!

- أعترف لك بحمقي، وأعترف لك أنه لم يحبني أحد كما أحببتني، ولكنك كنت تتجاهلين رغباتي، تمنيت أن تغيري من مظهرك وتجملي وجهك حتى لا أفكر في أي امرأة غيرك.

- هل كنت تدرك كم قاسيت حتى أنجح في دوري كأم وزوجة وامرأة عاملة؟

كنت ترى معاناتي وتتجاهل إرهاقي ولاتمد يدك لتعاونني وترفع عني بعض تلك الضغوطات،

لقد كنت أجري كما ثور في ساقية لحل مشكلات أولادنا، وأجري لألحق بالسوق لأجهز وجبات الأسبوع، لأوفر بعض الجنيهات التي قد تحتاجها أنت أو أولادك.

تعبت؛ كنت أحاول أن أحافظ على أنوثتي التي تم وأدها مرارا من تجاهلك وأنانيتك، كنت أنتظرك كما الغانية المستأجرة حتى أرضي ذكورتك، غير أني غانية بلا مقابل.

كم كنت أضحك حينما أسمع عن حقوق المرأة وتحرير المرأة وحق المرأة في التعليم والعمل، حقها في أن تثبت ذاتها.

لقد نصب علينا دعاة تحرير المرأة، نصبت علينا المؤسسات والحكومات، بل ونصب علينا رجال بلدتنا؛ لقد أطلقوا لنا الحبل ولكن طرفه بأيديهم، كنا كما الثور المغمى، كانت جدتي أميرة في بيتها تشرف على البيت وأبنائها فقط، لتأتي حركات تحرير المرأة وتزداد الحمولات فوق ظهورنا، صرنا خادمات في بيوتنا وعاملات في المصانع والمدارس والمستشفيات؛ لندر دخلا يصب في البيت أيضا، تحولنا إلى مخلوق مشوّه؛ نصفه أنثى ونصفه الآخر ذكر.وفي النهاية ألقيت أنت بكل اللوم والتقصير عليَّ أنا، صرت

تسخر من شكلي ومن جسدي ومن صوتي، كنت تتأمل الفنانات في حسرة وتنظر لي نظرة اشمئزاز، كم ضقت بنفسي وكرهتها!

حطمت بعدك كل المرايا حتى لا أرى ذلك الكائن المشوّه، وضقت بكل الرجال وكل منظمات حقوق المرأة المتشدقة بكلمات سخيفة وخطب لم تحل مشكلاتنا بقدر ما أغرقتنا أكثر وأكثر، ومجتمع يكيل القبضات في وجه المرأة ويعيقها، لايمد لها يد العون لتخفيف الأعباء عنها ...

حين أخذت قرار الطلاق وتركتني، كنت كمن تم الإلقاء به في وسط المحيط بلاعوامة أو طوق للنجاة، ولكنني تخلصت من قيدي وتخلصت من رغبتي فيك وانتبهت لقيمتي،انتبهت إلى أنني إنسان يجب أن يكون له استقلاليته، أكملت مهمتي مع أبنائي وتفرغت لنفسي.

- نعم لقد تغيرت إلى امرأة تمنيتك أن تكونيها حينما كنا معا، صرتأجمل، ليتك تظلين هكذا، أتمنى أن تنقصي من وزنك قليلا وتضعي عدسات زرقاء وتلوني شعرك أصفر، ليتك ترتدي البنطال الجينز الضيق أوالفستان القصير، وتضعي عطرا ناعما يفوح أنوثة، أريدك أن تكوني أنثى من الستينيات، كما ممثلات هذا الجيل، ترتدين الكعب العالي وفستانا يفصح عن الصدر المرتفع الناهد ...

- أعتقد أنه حقك، ولكنك أتيت بعد أن أنهيت مهمة تربية أبنائنا الذين هم أبناؤك أيضا، عدت بعد أن أكملت أنا مهمتك، بعد أن تخليت عني

وعنهم.عدت بعد أن تحول اسمك لمجرد أحرف تلي اسماءأولادنا. أنت لاتريدني أنا، بل تريد امرأة تخلقها على صورة حبيبتك التي تخلت عنك؛ أنت لم تحبني، بل أحببت نفسك وأحببتها هي؛ فمن يحب إنسانا يتقبل عيوبه قبل مميزاته، وأنت مازلت ترى عيوبي ولم تنطق بما فيّ من مميزات، مازالت عيناك تنتقي وتبرز المساوئ، تترصد نواقصي.

وأنا أيضا حين أتيت إلى هنا، كان رغبة مني أن أختبر مشاعري تجاهك، أردت أن أطمئن أنني قد شفيت منك، برئت من حبك.

البيت لم يعد بيتي، ملامحه صارت كما صورتك داخلي، لم أعد أشعر بين جدرانه بالأمان،ولم أعد أراك حبيبا؛ رائحتك صارت غريبة على أنفي، صوتك يسبب لي القلق.

المكان ربما كما هو، ولكن أنت لم تعد كما رأيتك أول مرة؛ لقد تغيرت أنت وأنا أيضاتغيرت، صرت أمرأهاليوم، وقد غادرتني صورة زوجتك التي غرقت حتى أخمص قدمها في المسؤولية والبيت.

يقول (هيرقليطس): نحن لا ننزل إلى ماء النهر مرتين.

ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها وتركته مع الجدران الباهتة.

كشك الشهيدة

أمسكت بذراعه، تعلقتبها، ثم ما لبثت أن احتضنتساقه؛ ترجوه ألا ينزل إلى الشارع.

- أرجوك أبي. لا تشارك في الظلم،لا تمد يدك للطغيان، لاتكن هراوة للصوص.

- أنا ؟جاسوس؟ إنما أشارك يا ابنتي في الدفاع عن النظام، عن الأمن، عن حكومة بلدي ضد من ينشرون الفوضى والنهب، ضد العملاء المندسين بيننا ويبتغوناستعمارها.

- لا ياأبي. أناأعرف أن من نزل في هذه الثورة؛ يدفعون حياتهم ويضحون بمستقبلهم لأجلي ولأجلك، لأجل كل الفقراء والمهمشين والمطحونين، فلا تتعاون أنت عليهم.

- أنا أتعاون مع السادة لأكون منهم ذات يوم؛ لحمايتك وإخوتك، لكي أوفر لكم حياة كريمة، ومستقبلا مضمونا، فأنا أحدرجالتهم، أنا معهم.

- واهم أنت أبي؛ فلن يسمحوا لك أن تكون منهم، بل ستظل تابعالهم، مجرد عصا يلوحون بها إرهابا للضعفاء، أنت اليد التي يبطشون بها،

يد اللص الذي يسرق الأصوات الحرة من الصناديق ويستبدلها بأوراق مغشوشة مثل لاعبيالقمار، وأنت من تورد لهم الأصوات تحت التهديد أحياناأو بالبيع في أحايين أخرى، تستغل حاجة الناس للمال فتشتري أصواتهم، أنتبلطجي.

يمد يده ليصفعها، تواري دموعها وتقف لحظة متماسكة لتسقط أرضا ينهار الأب ويسقط على الكنبة المواجهة للشرفة،لا يصدق أن ابنته كبرت وتتحدث كما الشباب الثائر بل وإنها تحاسبه.

- ليتني وجدت أبا يعلمني كما علمتك،أو أما تلقمني الحلال والحرام، ليت أبي علّمني مهنة أو حرفة حتى أعولكم من دخلها وأوفر لكم ما تشتهون وما تتمنون قبل أن تلفظ به ألسنتكم، ولكنني بلا مؤهل ولا حرفة،اللهم قوتي البدنية وملامحي المخيفة وصوتيالأجش الذي يرهب من يسمعه، أنا وأنتم نقتات على قوتي البدنية، أساند سادة بلدي لأنهم هم من يسنون الخير والشر وهم من يحدد المواطن والعميل، من مات أو قتل من الشباب المشارك في الثورة هم خونة للبلد وللنظام.

وقفت الفتاة وكلها عزيمة وإصرار، على جثتي يا أبي إن نزلت الليلة، أنا سأمنعك أن تتعاون على قتل الأبرياء، سأمنعك أن تطعمنا حراما، أن تمد يدك المخضبة بالدماء إلى فمي بالطعام الغارق في دم الأبرياء.

فجأة يغيب صوتها وكأنها غادرت المكان تتأوه في ضعف، لتسقط بين ذراعيه،أمسكها محتضنا لها في رحمة، معتقدا أنها تجبره على عدم النزول، يشعر بلزوجة وسخونة في يده، يرفعها إلى عينيه ليجدها باللون الأحمر القاني وساخنة، يصرخ غير مصدق لما رآه، تخرج الأم على صرخات زوجها، معتقدة أنه يضرب ابنتها، لتجدها ملقاة بين ذراعيه مدرجة بالدماء، لقد أصابتها رصاصة طائشة من رجال الأمن المنتشرين بالشارع الذين يطاردون الشباب الخارج لكسر الحظر؛ لتجتاز الشرفة إلى رقبتها.

تصرخ الأم حسرة؛ إنها أجمل بناتها وأكثرهن ثقافة واتزانا بل وذكاء، أسرع بها إلى أقرب مستشفى؛ يرفضون استقبالها تجنبا للدخول في صراع مع الأمن، ويوجهونه إلى مستشفى القصر العيني، لتلفظ آخر أنفاسها وتلحق بالرفيق الأعلى.

حصل الأب على تعويض لا بأس به لمقتل ابنته برصاص رجال الأمن،وتم ترشيحه وزوجه للحج، وحصلا على شقة، ووفرت لهم الدولة كشكا، كان يقبض ثمن من يسلمهم للأمن أو يتعاون في نجاح مرشح ما، لم يكن يتصور أنه سيقبض ثمن دم ابنته.

حين تتجه إلى أحد الميادين المشهورة تجد كشكا باسم الشهيدة، يقف فيه رجل أجش الصوت، ضعيف البنية، يستمع إلى القرآن في الراديو، تدخل عليه امرأة ترتدي عباءة سوداء بصحبة فتاتين وصبي

يرتدون طيب الملابس، تحييه وتخبره أنها ستقوم بتوصيل البنات إلى المدرسة وستصحب ابنها إلى النادي لتدريب الكرة،

تذكر قول ابنته الشهيدة: إن من نزل الثورة يدافع عني وعنك، إنهم نزلوا لأجلك وأجلي ولأجل كل المهمشين. نظر إلى صورتها المعلقة على الحائط، أعلى الكشك ومازال يسألها:هل كان لزاما أن تدفعي عمرك وشبابك لكي نحيا نحن؟!

وصفة علاج

- حجزت موعد اليوم باسم منيرة سامح؟

- نعم سجلت الاسم، تفضلي اجلسي حتى أناديك.

بعد ربع ساعة دخلت الطبيبة العيادة، لوحظ أنها نزلت من المصعد، يبدو واضحا أنها تقطن بنفس العمارة.

نادت الممرضة على اسم منيرة، لترد وتدخل العيادة.

- أهلا منيرة، أنت أفضل الآن؛ وجهك بدا عليه التحسن.

- نعم، الحمد لله، الفضل بعد الله يرجع إليك؛ فلقد تمكنت من اكتشاف مرضي رغم ندرته، وبعد أن ترددت على أكثر من طبيب وعيادة، أنت طبيبة ماهرة ومجتهدة.

- المهم أن تلتزمي بالجرعة المكتوبة وسنستمر عليها لمدة شهرين كاملين.

- لقد قلت لي إن العلاج لمدة عامين فقط.

- أعرف، لكن لابد أن نواصل الجرعات حتى نتأكد من أن البكتيريا خمدت تماما.

- خمدت؟ ألم أُشفَ؟

- البكتيريا لا تموت بل تخمد؛ هناك علاقة عكسية بينكما،إن قوي جهاز مناعتك ضعفت وخمدت، وإن ضعف جهاز المناعة قويت هي وسيطرت على جسدك، وهذه المرة سيطرتها ستكون أقوى لأنها ستتحصن ضد الدواء،انتبهي، لابد من التغذية الجيدة.

يقطع استرسال كلام الطبيبة رنات للتليفون متواصلة، تجيب الطبيبة:

- نعم حبيبتي. الطعام ساخن بالميكروويف، والعصير بالثلاجة، بعد الانتهاء من العيادة سأصعد لمراجعة السابنس معك.لا، لن أتأخر.

تغلق سماعة التليفون وتواصل الحديث مع منيرة:

- أعتذر عن المقاطعة؛ فلقد صارت بيننا علاقة أقرب للصداقة منها علاقة مريضة بطبيبتها فلنا معا أكثر من عامين.

- بالفعل، لكنني أرى أنك ترهقين نفسك بشكل مبالغ فيه؛ فأنت تعملين بالعيادة وتحضرين للدكتوراه وتتابعين البيت وأبناءك، كل هذا؟

- تعلمين أن زوجي طبيبا، ومازال يحضر للدكتوراه مثلي، وتقريبا لا أراه؛ أغلب الوقتما بين المستشفى العام وعيادته والمذاكرة وأنا مثله، ولكن مازال البيت مهمتي الأولى والأولاد ولن تنوب عني لا مربية خاصة ولا جليسة أطفال، ومدارسهم مكلفة للغاية، ونحن مازلنا نبني حياتنا

والميزانية لن تتحمل دروسا خصوصية كما وأنني لا أثق إلا بنفسي في تربية أولادي. الحمل ثقيل ولكن نحن في مجتمع أهله يتفننون في إلقاء العوائق بالطريق أمام النساء، فلاهم يتركونها تكمل رسالتها ولاهم يساعدونها، ولابد أن أتكيف مع الواقع وألا أضيع الوقت في الشكوى؛ أبذل ما أستطيع من وقتي وصحتي وعلمي حتى أحقق ما أحلم به، ربما لن أتقن كل أدواري ولكن لن أتهاون في تحقيق أعلى نسبة نجاح في عملي وحياتي.

لذا فتحت العيادة في نفس العمارة التي بها بيتي حتى أتمكن من متابعة أولادي، وكلما برز عائق أفكر في طريقة لإزالته؛ فلاوقت للشكوى.

- أحييك دكتور على بسالتك وعلى شجاعتك؛ قليلات منهن مثلك.

-بل هن كثيرات؛ كل موظفة وكل عاملة وكل معلمة أو طبيبة أو حتى بائعة تمر بما أمر به من عوائق وضغوط ومشاكل ويتغلبن على كل ذلك؛ لأن المرأة مخلوق مثابر وقوي، وخير دليل أنت.

- أنا ؟

- نعم أنت. لقد تحملت مرضا مرعبا وعلاجه القوي المجهد، ورغم ذلك لم تستسلمي وواصلت عملك ومتابعة أولادك، ولم أسمعك تتأففين أو حتى تعترضين.

قوة أيمان وعزيمة، وكذلك فهمك أن ما بين أيدينا هو أمانة لابد من الحفاظ عليها وتأديتها على نحو يرضي ضمائرنا؛فالأبناء أمانة والزوج أمانة والعمل أمانة ومصالح الناس وصحتهم أمانة، لقد كنت أنت خير دافع لي لتحدي ظروفي وتذليلها بالصبر والتفكير لا بالاستسلام والشكوى، أنت من ألمهني القوة والتحدي.

منيرة، كنت الطبيب الذي وهبني العلاج دون أن يقصد، أراك بعد شهرين تكونين قد أتممت علاجك وتم شفاؤك، وأشكرك على الروشتة التي كتبتها لي.

- أشكرك على كل شيءدكتور.

خرجت،وفتحت الباب لمن يليها من مرضى.

نيلوفر

إلى وقتنا هذا لا أمل من التنقيب عن المعنى والمغزى من وجودي، ومعنى مفردات كثيرة كم قرعت ضمائرنا وأصمّت أذاننا ...

كنت في السابعة حين اختبرت الفقد، وأفلت من بين يدي البيت، وتناثرت أطلاله هنا وهناك.لست شابا؛بل فتاة نبتت بداخلها الأنوثة والفتنة التي رأيت سحرها في نظرات الرجال حولي. أصيبت أمي بلوثة عقلية وتفننت في تعذيبي، وكأنها تعاقبني على نزع الحياة منها أنا المنكوبة بأمومتها ويتمي، حملتني أوزار اختياراتها، هي التي استسهلت الطريق بالزواج المبكر بأول رجل تقدم لها حتى لا تعاني من المذاكرة والالتزام في صف التعليم، وتقرر أيضا وبكامل حريتها أن تنجبني حتى تقيد اختياراتأبي، ويلي وجودي في الحياة إنجاب أختيّالاثنتين، ويهرول أبي ويتعثر ليوفر لنا متطلباتناواحتياجاتنا لأجل العيش، فيُقتَل في حادثة سيارة وتهرب تاركة له على الطريق ليكتشف موته بعض المارة فجأة، وحتى بعد موته رفضت أن تتعب وتتحمل مسؤوليتنا واكتفت بالعويل والصراخ وتسول الخدمات والإعانات وحين كلَّمنها القريب قبل البعيد،

وجمت جل لعناتها إليّ؛ لتلفت نظري أن هناك الأقل مني جمالا وقد تمكنَّ من توفير المال لأسرهن وأنا عالة عليها وعلى البيت بل والدنيا، سألتها:

- ماذا تريدين مني أن أعمل؟ أنا ما زلت طالبة بالصف الأول الثانوي.

- لا أعرف، ولكن أكيد لك معارف وأصدقاء يستطيعون توفير فرصة عمل لك.

- ودراستي؟

- الدراسة أهم أم إطعام أخواتك؟

- ولماذا لا تعملينأنت كما باقي الأمهات؟

- أنا أرعى أخواتك والبيت وإن خرجت من سيتولى رعايتكم؟

-كم من أمهات عاملات ويوفقن بين بيوتهن وعملهن.

- ولماذا أعمل وأنا لي ثلاث بنات، لماذا ننجبكم إذن؟

- هل أنجبتني وأخواتي لنكون كما الرقيق لك؟

- هل حين تطعمين أمك وأخواتك ستكونين عبدة؟

بعد عدة تجارب في العمل بالمحلات كبائعة وأحيانا عاملة نظافة، ولم أسلم من التحرش والغزل والإغواء، قررت أن أعمل بأحد الملاهي الليلية.

وبالفعل ذهبت إلى هناك وطلبت مقابلة مدير الملهى الذي طلب مني أن ألف وأن يشاهد رقصي، وكان هناك تعليق منه: "أنت قصيرة، ولكنك فاتنة، وهناك الكثير من الرجال الذين يحنون بمثل حجمك وصغر سنك،

ستكونين راقصة مختلفة ومميزة، أجد أنك تتقنين بعض الحركات المثيرة بالسليقة؛ فأنت أنثى من صنع الإله بلا تدخل من يد بشر.".

وكانت ليلتي الأولى أصعب ليلة في حياتي، وكان لابد من أن أتجرع كأسا من النبيذ حتى أتجرأ على مواجهة الجمهور، ونجحت بشكل أسعد مدير الملهى ليطلب مني أن ألحق به على مكتبه،

لأتفاجأ بعقد عمل لمدة خمس سنوات وبشرط جزائي مئة ألف جنيه، وراتب شهري لم أكن أحلم به يوما ونسبة من المرافقة والمشروبات.

هكذا دخلت من باب خلفي للحياة يرفضه المجتمع الذي سنَّ ثقافة وقوانين تكبل فرصك في أن تعيش، وتوفر لك فرصا أخرى متنوعة ورائعة للانحراف.

وكأنها لعبة الغميضة؛ أنت تختبئ ونحن نفتش عنك وإن أمسكناك خسرت.

وحانت ليلة جديدة وكان هو بطلها؛ جلس في مائدة خاصة به وحده في الركن الأيمن وشاهدته يتأملني، يلف بعينيه ليحوطني كمن يلفني بعباءة ليمنع عني التعري، تلك العباءة كانت عينيه،

لم يتأمل جسدي كما يفعل رواد الملهى وأنا لم أشاهد أحدا غيره في تلك الليلة؛ كنت أرقص على دقات قلبي وكانت ساقي تتحرك كما الغجرية بخلخالها النحاسي لتعلن عن وجودها لحبيبها.

انتهت الرقصة وعدت إلى غرفتي لأبدل ملابسي، وإذا بدعوة منه أن أرافقه في تناول العشاء على مائدته،وافقت.

وكان اللقاء الأول، قاسمته بعض الكاسات، وعرض عليَّ أن يقوم بتوصيلي إلى بيتي، قبلت وركبت معه السيارة، وكنت أردد أغنية بصوت ماجدة الرومي: "يسمعني حين يراقصني."، لاكتشف في تلك الليلة أن صوتي جميل.

وجدتني معه بحجرة في أحد الفنادق الكبرى، كنت وطوال سنوات عمري التي كانت بعد في طور الصبا، أتذوق الجمال ويصيبني الحزن إن امتدت يد لتفسده، أضيق بقطع شجرة أو بنزع زهرة أو بضرب قطة أو أي حيوان لاحول له ولا قوة.

كنت أتمنى لو كان بيدي الصلاحية والحق أن أعاقب أي أب أو أم ينجبان طفلا ويتسببان في وجعه أو إهانته. ليتني أتمكن من صفع من يلقي بقمامته في حديقة أرضها خضراء وبركتها مسكن لأسماكجميلة.

وحين طلب مني أن أرقص على أغنية لأم كلثوم في الملهى، رفضت أن أفسد الجمال وأن يتناوله رواد سكارى كما يتناول العنب بعد إفساده خمرا، أوكمن يتناول السمك الطيب بعد تعفينه فسيخا، رفضت أن أشارك في إفساد جمال أبدعه فنان.

وكنت أدرك أن جسدي فن، نحته أجمل فنان، ولن يليق أن أفسده بلمسة من سكير لا يفرق بين جسدي ووسادة يحتضنها.

ولكنني كنت في هذه الليلة في حالة عشق، تأملني في فستاني الأزرق ذي الكريستالات المضيئة،وقال:

-فينوس أنت.

- لا، بل أنا نيلوفر.

- من نيلوفر؟

- زهرة نبتت رغم الطبيعة في ماء النيل، كما وأنها تخفي أسراره، ورغم أنها ناعمة إلا أنها أقوى الزهور وأكثرهم مقاتلة لأجل الحياة.

- بل أنت أزاليا؛ تلك الزهرة الصغيرة ورقاتها، ولكنها بديعة الشكل؛ تستمتع بها من بعيد، فإن اقتربت نالك منها الموت.وأنت قصيرة، دقيقة الملامح، ناعمة، ولكنك خالدة؛ أنت ربة الراقصات،أراك إلهة كما فينوس.

أنت منذ الليلة أزاليا، الراقصة أزاليا، بل الإلهة أزاليا.

- راق لي الاسم، ليكن.

- تعالي في حضني؛ لألتمس بركاتك أيتها الربة. لا، لايجوز أن ألمس جسدك الطاهر، فأنا في حالة غياب ولاتقبل صلاة من ثمل.

- دعنا ننام وفي الصباح نكمل حديثنا.

في الصباح، فتحت عيني لأجدني على الفراش، ووجدته نائما على الشيزلونج، نهضت لأقبله في رأسه وهناك صراع في داخلي: هل أواصل اليوم معه أم أنصرف؟قلبي يطلب مني البقاء وعقلي يأمرني بالانصراف، ولكني أريده؛ أتمنى لو أستغل ضعفي وعطشي إلى لمسته ورحنا معا في نشوة الحب.

لملمت حذائي وألقيت بالوشاح على كتفي ونزلت،طلب لي الحارس سيارة أجرة وانصرفت إلى بيتي، كانت تنتظرني في الصالة؛ حاولت أن تمارس دور الأم وتسألني: أين كنت؟

أجبتها بأنني كنت مع رجل في أحد الفنادق ودفع لي أجرة الليلة، وألقيت بحفنة من الدولارات في وجهها، كان جل رغباتي أن أوجعها وأشعرها بالعار، ولكني كنت أوجع نفسي معها.

أخذت حماما وارتديت بيجامتي ودخلت غرفتي المكيفة ونمت، كنت أتقلب في فراشي بحثا عن ذراعه، اتشمم عرقه وألقي بشفتي فوق شفتيه، لأجد برودة الوسادة لا شفتيه.

صحوت وهناك رغبة تلح عليّ أن أسجل صوتي في أغنية،سجلت أغنية رددتها فتاة تعمل بالملهى معي، وجدتني لابأس بي، بل صوتي كان مختلفا.

بعد أن تناولت فطوري الذي أعده لنفسي، ذهبت لأجل بروفات الرقصة الجديدة،وجدته هناك في انتظاري؛ يجلس مع مدير الملهى، رافقتهم الجلسة وتناولت فنجان قهوتي، استأذن المدير في الانصراف للاستعداد للبروفة؛ لانفرد به.

- مارأيك أزاليا أن تعملي معي في فندقي؟

- أمصمم أنت على أزاليا؟

-رغم أنني أثمل، ولكن لاأنسى ما أقرره حينها، وأنا لاشك أذكر يا إلهة الراقصات بأنك أزاليا.

- لابد أن أنهي عقدي هنا أولا؛ فهناك شرط جزائي بمبلغ غير متوفر معي الآن.

- أعرف، سوف أسدده عنك، فقط اقبلي.

- لكن، سأعمل كمطربة؟

- هل تعتزلين الرقص؟

- بل أعتزل خلع الملابس.

- أنت تمارسين فنا جميلا أزاليا.

- هل عمرك رأيت سكرانا يتجول في أتيليه لمعرض رسومات أو يعي الإبداع في تلك الرسومات وهوغائب عن الوعي؟

لاغائب عن الوعي يبحث عن الجمال، بل يبحث عن إشباع غريزته التي يناصفها الحيوان.

وأنا أريد أن أعيش مع الفائقين لا السكارى، لتسمع صوتي، إن راق لك اقبلني كمطربة، وإن لم يعجبك، فأجبر أن أعمل في الليل كما الخفافيش في الكهوف المسماةبالملاهيالليلية.

غنّت وحررت صوتها من سلاسل الخجل، وكانت كما حورية نزلت من السماء، صفّق لها كل من كان بالمكان عمالا وراقصين.

- لنكتب عقدا لك كمطربة، بل كفنانة استعراضية، تغني وتؤدي رقصات.

- لا بأس؛ طالما سأكمل لوحة.

أذكر الآن كل ذلك بعد أن صعدت سلم الشهرة ولمعت كما نجمة في سماء الفن وقراري أن أعتزل تلك السماء الوهمية لأهبط أرضا ألمس ترابها

وأختلط بأرصفتها، وأرتاد بيوت الأيتام؛ ألاعبهم،وألتمس الدفء في أحضانهم،أسافر إلى القرى البعيدة لأقدم خدماتي لفقراء يتجرعون الماء بالطين.

فمنذ أن غادرني رفيق الفن وسندي ومنقذي من أظافر الغواية ذلك الذي رفض أن يجبرني

على أن أقاسمه جنونه ومنحني ثروته وغاب؛ سافر بعيدا ولم أعد أراه، لا أدري: هل فارق الأرض وصار نجما يراقبني؟ أم صار شجرة كافور تمنحني الظل والعطر؟

أشعر به حولي، أراه في الليل حين أجتمع والحلم في مكان أو عدة أماكن، صار الليل رفيقي، أعيش حياتي به، وأمارس إنسانيتي في النهار، في حالة انتظار له دائمة؛ لقد منحني بعضا من ثروته وغاب، ليته منحني قلبه وبعضا من مساحة حياته.

أما أمي، فاكتفيت أن أضعها في بيت بخادمة، أمنحها مايكفيها من مصروفات وكذلك أخواتي.

هل تصدقون أنني حتى تلك اللحظة مازلت عملا إبداعيا لم يفسده ذوق لكائن عفش، مازلت جسدا بكرا وروحا في ولادة مستمرة؟! لم يكن لي من اختيار في أن أخلق، ولكني اخترت ألا أتسبب في إفساد جمال.

يناير... ثانية

في أحد الشوارع الهامة بالقاهرة تسير مظاهرة، كما توابع الزلزال كانت إحدى توابع يناير، وأصوات تطالب بالحفاظ على الديمقراطية وحق الأغلبية في أن يتمسكوا بما قالته الصناديق.

المشاركون في المسيرة عدد ليس بالكبير؛ ففي الطريق من يناير حتى وصلنا إلى مابعد يونيو سقط من الجموع عدد ليس بالقليل وتفرقت الأهواء وتضاربت المصالح، وظهرت الصفقات والمزايدات والمناقصات حتى خرجت تلك المسيرات يضمها مجموعات ذات أيدلوجية واحدة ورؤية واحدة وطريق واحد.

إذا بطلقات من الرصاص الحي تتساقط فوق الرؤوس، ويتساقط عدد من المشاركين،

ليسقط بجوارها شاب لم يتجاوز بعد سن السادسة عشر قتيلا.

تنظر إليه والدموع تنهمر من عينيها، تحاول أن تمد يدها إليه بالمساعدة لعلها تتمكن من إنقاذه من الموت أو الاعتقال،

تفاجأت بيد أحدهم يشدها ويجري بها إلى أحد الحارات الجانبية، تحاول أن تفلت يدها من يده، ولكنه كان أقوى، وهي تصرخ:

-أريد أن أطمئن على الولد،أرجوك اتركني أعود إليه.

- أرجوك أنت؛ أنا أحاول أن أنقذك؛لو سقطت بين أيديهم لن تعودي إلى بيتك أو أولادك ثانية.

رنات متواصلة على المحمول، ترد:

- مسيرتنا القادمة ستخرج بعد صلاة الجمعة.

- أجيبي على سؤالي أولا: هل تعرفين أخبار الشاب الذي سقط بالأمس؟

- لا، ليس من السهل أن نتواصل مع أي ممن تم اعتقالهم أونقلهم إلى المستشفيات الحكومية؛ فنحن سنكون في خطر، ثم لايجوز مثل هذا النقاش في الفون، على موعدنا وسنتحدث ...

التقت بأحد المنظمين وسألته: لماذا لاتتوقفون وعدد من يقتلون في تزايد وعدد المعتقلين في ارتفاع؟

أجاب:إنه ثمن الجنة.

- الجنة؟ وهل خلقنا للموت أم للحياة؟ هل حين هبط آدم وزوجه كان ذلك لغرض إعمار الأرض أم لإعمار المقابر؟أنتم تقدسون الموت

وتكرهون الحياة، لقد شاركتكم الثورة أملا في الحياة، لا بحثا عن الموت لي ولأولادي.ولم تقدمون الشباب والفتيات قرابينا وأنتم تختبؤون؟!

- أتتهمينا بالبرجماتية أعوذ بالله؟ لقد ماتت أختي واستشهد أبي وكلنا ندفع ثمن الحرية.

- أنا لن أشارك معكم في تلك المذابح؛ فالحكمة تقول:إنه لابد من الانسحاب طالما كانت هناك هزيمة حتى نستعيد قوتنا ونعيد مراجعة أخطائنا، لكنكم تنتحرون.القاتل مسلم والقتيل مسلم وكلاهما في النار.

أنهت كلامها وانصرفت.

تنتقل لتشارك الفريق المعارض لذلك الفريق الذي اكتشفت تعصبه وانحيازه الأعمى لفكرة أحادية الاعتقاد، ورفض وتكفير أي منتمي لفكر مخالف لهم، كانت مسيرة تطالب بالعودة إلى الديموقراطية وتحقيق مطالب الثوار: عيش، حرية، عدالة اجتماعية. وكان أفرادها من عناصر متنوعة مابين الطبقة المتوسطة اجتماعيا والطبقة الأرستقراطية والبرجوازية والراغبين في نظام علماني مستقل يحترم المواطنة بلاتميز بسبب المعتقد الديني؛ فحرية الاعتقاد من حق الجميع وما يحكم بيننا هو القانون، الجميع كان متفقا وموافقا على تلك الطلبات.

وصلت المسيرة إلى الطريق الدائري، ليتفاجأ الجميع بعدد من النساء والرجال الملثمين يتسلقون الكوبري صعودا،

فهو يطل على مناطق عشوائية تقطنها الطبقة المهمشة التي يدافع عنها الثواروالتي لأجلها صيغت طلباتها، لتتساقط زجاجات المولوتوف فوق السائرين والحجارة وكأنها انتفاضة أخرى، ولكنها ضد التحرير، ضد العدل، ضد التخلص من الفساد، ضد استقرار حرية القضاء ونزاهة صندوق الانتخابات.

لوهلة لم تستوعب مايحدث؛ لم تصدق أن من يضرب بالحجارة والمولوتوف والزجاج هم من نموت لأجلهم، لو كانت الطلقات والضربات والتراشق بالحجارة خرج من النظام ورجاله لكان الأمر مصدقا طبيعيا، ولكن خرج من أهلنا، من هؤلاء المتناسين من كل الأنظمة، المسروقة حقوقهم، هل من المنطق أن تدمر المستقبل لأجل ورقة بخمسين جنيها أو وعد بأن تتحقق مصالحك الخاصة فوق مصلحة الوطن؟ هل يعقل أن تحتلنا الأنانية وتدهس تحت أقدامها المساواة والعدل؟

عادت من المسيرة وقد غطّتها الدموع وغسلت وجهها بالماء الجاري لعلها تستطيع أن تزيل وسخ الصورة التي شعرت أنه التصق بوجهها وعينيها.

لن تتمكن من أن تطالب بأن تعيش كما الإنسان إلا بعد أن تقضي أولا على الجهل والفقر؛ فلا ديموقراطية مع شعب يجوع أكثر مما يشبع، شعب ورث أولوية الخبز على الكرامة والحرية.

سلحفاة

نظرت إلى تلك السلحفاة التي تشاركني غرفتي بل سريري وبيتي، وجدتها مترددة دوما في أن تطل برأسها لتشاهد من حولها وتتعرف على مفردات بيئتها؛ تُخرج رأسها لثوانٍ ثم تختبئ في صدفتها لساعات، كما وأنها تهرب من الحياة، تخاف أن تتذوق الألفة، تمارس التعلق بحبيب أو رفيق حتى لاتُطعن في قلبها أو تُصفع على كرامتها؛ كانت تكتفي بالسلام والهدوء الذي وجدته أثمن من أن تضيعه في علاقات خسائرها أضعاف مكاسبها.

يكفيها تلك الوريقات من الخس أو حتى قطعة من أي ورقة خضراء لتبقى حية وترافق باقي اليوم ذاتها وتنغلق على نفسها، لذلك فهي من الكائنات المعمرة؛ فهي لاتُقحم نفسها في سباق مع أحد، ولا أطماع لها في مخلوق، ولا حلم تستميت للوصول إلى طريق لتحقيقه، ولا لهفة ولا ألم لخيبة ما لحقت قلبها ...

كلّما تأملتها،اتضحت الصورة أمامي وأضاءت ألوانها كمحاكاة صادقة للطبيعة، طبيعتي.

نعم، أنا انعكاس لتلك السلحفاة، أخشى الانخراط بين البشر والانغماس في التعلق،ولكني لست بحكمتها القسرية؛

فلقد تلقيت من المحيطين الصفعات تلو الأخرى حتى أصابتني متلازمة أقرب للجبن، بل الرهاب، الرهاب من الفشل، الرهاب من الرفض، الرهاب من الحب، الرهاب من الفقد.

كنت أكتفي بالمشاهدة والمراقبة، كما وأني في أحد الأركان بإحدى دور السينما أستمتع بفيلم طويل، متعدد الأبطال والمشاهد والأماكن، وأنا مرة أضحك ومرة أذرف الدموع لصدمة البطلة، وأحيانا أجد جسدي الكامن الساكن في كرسيه يتراقص مع البطلة ويطفئ شموع عيد الميلاد مع الحبيب، وأراني مع الجموع لأشارك في مسيرة أطالب فيها برفع الظلم عن النساء والمعيلات، وأشاهد نفسي وكأنني من تلك الطبقة الطافية على سطح الحياة والتي لم تلامس أصابع أقدامهم القاع وطينه، والتي يسمونها الطبقة الأرستقراطية أو البرجوازية،أشارك في مسيرة تطالب بحق الحيوان والرحمة بالحمار الذي يتلقى ضربات صاحبه الذي يعاني من مرض السادية الذي وصله كعدوى من الفقر والظلم الراسخ فوق ظهره، أعيش الحياة كمشاهدة أستمتع فقط بالتصفيق لكل مشهد جميل، لكل سيدة ناجحة، لكل ثائر رفض إلا أن ينتزع حقه بيده، لم يكتف بأن يستنجد بالسماء لتصب لعناتها على الظالم وترد له حقه؛ فلن تتدخل السماء وقد منحك الإله صلاحيات لم يمنحها لمخلوق غيرك. أما عني، فأنا كما تلك السلحفاة؛ أقنع نفسي أني

أعيش، ولكن وللحق أعترف أنني أتنفس الهواء وأمضغ اللقيمات وأنا مسجونه تحت صدفتي.

ولكني لم أخلق سلحفاة، ولم يسوِني الإله جمادا ولا حيوانا ولا ملاكا ولا شيطانا، أنا إنسان منحه الرب عطية العقل والوعي وحرية الاختيار، وكان يقينه أننا سننجح في تحديه للملائكة ومخلوقاته أجمعين، فإذا كان هناك من يشعل الحرب ويحرق الزرع وينشر المرض فهناك أيضا من يسن قوانين تحمي الطبيعة ويحافظ على بقائها صحيحة وهناك من ينظم المحاكم والقضاء الحر الذي يدافع عن حق الأمم في حريتها واستقلالها، وإن كان هناك رجل صفعني بفعل الخيانة فهناك من طبطب وربت على كتفي ومد يد العون لأنهض وأكمل رحلتي.

الانزواء ضعف، الاستسلام ليس من شيم الإنسان الذي وهبه الله نفخة من روحه فكان ذلك الكائن الجبار الذي صعد للقمر ويُعبّد المريخ وخلق جنته بالأرض، ذلك الكائن الجبار الذي يجبر نواقصه والذي يعض على أنامل الندم حين يرتكب جريمة الهدم.

لايجوز أن أحيا كسلحفاة؛ فالحياة متعتها أن تغامر وتتنافس، فتجد في نهايةكل مشهد متعة مختلفة، ربما لن أعيش بعدد سنوات سلحفاتي، ولكنني سأحيا.

القاتل ابني

طرقات على الباب متتالية ورنات على الجرس متلاحقة دفعتني لأن أجري إلى الباب؛ فلابد أنها كارثة أو خبر مفجع برفقة الطارق.

فتحت الباب لأجده أمامي بعد سنوات طويلة من الغياب ليس بإمكاني إحصاؤها.

كان يحمل حقيبة تم ربطها بحبل غسيل بلاستيك، يرتدي زيا صعيديا ويلف رأسه بكوفية صوف؛ فلقد كان الشتاء.

- حمدا لله على السلامة. أخيرا تذكرت أن لك أما؟

ألقى بجسده بين ذراعي وأنتحب.

أجلسته على الكنبة وأحضرت له زجاجة ماء،قدمت له العشاء،التهمه في نهم.

لم أسأله عن شيء، فقط أخرجت له بيجامة من دولابه الذي هجره من سنوات وطلبت منه أن يدخل الحمام ليأخذ دوشا دافئا إلى أن أجهز له كوب الشاي باللبن الذي يحبه.

نظر لي نظرة امتنان وحب،وأخذ نفسا عميقا وكأنه يفتش عن رائحة ما افتقدها طويلا؛ إنها رائحة البيت.

خرج بعد ذلك وأمسك الكوب،وأخذ يحتسيه في تلذذ وعيناه كانتا زائغتين وكأنه يلحق بمسيرة ما أو يجري خلف أصحاب هجروه.

- خدعتني يا أمي، خانتني ليس مع رجل واحد بل مع عدة رجال.

- لم تحسن اختيار أي زوجة من زوجاتك؛ كلهن متشابهات، حقيقي من تلك الفتاة التي تقبل بالزواج من رجل يطلق أكثر ممايتزوج؟ لايرضى بالقيد أو المسؤولية، فكرته عن الزواج هو السرير فقط، وكأننا حيوانات تعاشر في موسم التزاوج وتنتهي علاقاتها بمجرد إشباع تلك الرغبة، أنت لم تخلص لأي امرأة تزوجتها؛ كنت مستغلا لهن جميعا.

- لقد مللت الزواج، وكرهت رائحة النساء، ولن أرتكب تلك الخطيئة ثانية.

- الزواج ليس خطيئة، بل نظرتك للزواج والنساء هي منبع الخطيئة؛ فأنت لم تؤسس لك بيتا حتى الآن، كما المطرودين من رحمة الله،اخترت أن تعيش بلا وطن، كُتب عليك التيه.

- خانتني يا أمي، تلك السيدة التي أحببتها وتمنيت أن أكمل حياتي معها، وأن أؤسس معها بيتي.

- ربما كان عقابك؛ فلقد ظلمت الكثيرات وجاء يوم رد الديون.أين أولادك التوأم؟ ألم تخبرني أنك رزقت بتوأم من الصبيان.

تلجلج وحاول أن يتهرب من الإجابة على سؤالي،ولكني أصررت على أن أسمع ردا على سؤالي..

- أين أولادك؟ أم كنت كاذبا ولم يكن لك أبناء يوما؟

- بلى، أنجبت زوجتي طفلين ولكنهما ماتا، ماتا من إهمالها.

- ماتا؟ لم يكتب لك أن يكون لك ولدا يحمل اسمك؛يكون امتدادك في الأرض.

جلس أمامي مُطأطأ الرأس وبداخله سر ما يريد أن يبوح به، ولكن كلما تزحزح إلى طرف لسانه ابتلعه بسرعة، إلى أن حانت لحظة رغب فيها أن يلقي حمله الثقيل عن ظهره، فتحدث:

- أمي، أنا قتلتهما، نعم قتلتهما؛ فلقد أصابني الشك والغيرة بأنهما ليسا ابنيَّ، قتلتهما ...

- ماذا؟! هل تحولت إلى قاتل؟ طبعا؛ فلقد كان ضميرك يموت بالتدريج، كان يلفظ أنفاسه ويحتضر عند كل خطيئة، كان لابد أن ينتهي بك إلى القتل، لقد فقدت إنسانيتك حين تخليت عن بيتك وزوجتك الأولى السيدة المحترمة والتي أفنت شبابها لتحافظ على بناتك وكان كل ذنبها أنها أحبتك وأخلصت لك وأنجبت لك بنات، وحين رزقك الله بالولد قتلته.

- كانت خائنة، متعددة العلاقات، كيف أثق في أنهما من صلبي؟

أعمتني الغيرة،وتململها من علاقتنا، ألقت بهما لي وتركتنا جميعا ورحلت، تركت لي الولدين ورحلت،ارتكبت نفس الخطيئة التي ارتكبتها مع بناتي.

- كيف تمكن قلبك من قتل أبرياء؟ ما ذنبهما؟ أنت لست ابني؛ لم تحمل يوما ملامحي ولا أخلاقي، أنت ابن عاق، شيطان.

- ارحميني يا أمي؛ لاملجأ لي إلا أنت، أريد أن أعود إلى حضنك، لقد اشتقت للأمان في وجودك، لقد ضللت الطريق وها أنا أهتدي وأعود إليك.

- أنت قاتل،ابني قاتل.

- لقد مرت جريمتي على خير ولم يعرف بها أحد، وهي اختفت، لقد وضعت مسحوق غسيل في اللبن وأرضعته لهما فماتا بسرعة ودفنتهما في الصحراء بأرض الصعيد؛ فلم نكن قد سجلناهما بالصحة بعد، ولم يعلم بأمرهما أحد إلا هي وأنا، وهي رحلت، وأنا تبت وأعلن توبتي على يديك، أريد أن أنام ...

- تنام؟ تنام؟ قتلت أبرياء لاحول لهما ولاقوة، لاقدرة لهما أن يدافعا أو يدفعا عن أنفسهما الظلم، وتريد أن تنام؟

- دعيني يا أمي أنام؛ فأخيرا أشعر بالأمان، فأنت هنا. لم أذق طعم النوم منذ غادرتني، منذ دفنتهما.

سكتُ وكأنني قد أصابني الخرس، وكأنني قد بليت بالشلل، ماذا أفعل؟ هل أبلغ عن ابني الشرطة؟ هل أسلمه للإعدام بيدي؟ ماذا يجب أن أفعل؟

ليس ابني، بل صارت ملامحه غريبة، عيناه تمتلئان بالضياع، لامعنى يطل منهما، مجرد فراغ، لامشاعر ولا بريقا إنسانيا يطل منهما.

لقد مات ابني وعاد لي جثة بلاروح أو قلب.

لا...

تأنقت ووضعت آخر لمسات زينتها، ثم جلست على كرسيها الهزاز لتسترخي قليلا وترتشف فنجان البابونج قبل النزول، أغمضت عينيها في غفوة قصيرة،

وإذا بها تسمع انفجارا مدويا في المطبخ ليمتد سريعا إلى حجرتها ويلفها بين لهيبه،تشعر بألم الحريق للحظة ثم تغيب في الفراغ، تختنق، تكاد تلفظ أنفاسها، لتنتشلها إفاقة مفاجئة يهتز على أثرها الكرسي، يسقط من بين يديها فنجان البابونج، وطرقات خفيفة على الباب، تدخل بعدها مديرة المنزل:

- سيدتي، السيارة جاهزة والحراس في الانتظار مع وفد من الحكومة.

- أبلغيهم أنني سألحق بهم بعد لحظات.

تنظر إلى المرآة وتمسح فمها وتحرك أحمر الشفاه بشكل دائري على شفتيها وتضمهما، تنظر في المرآة مودعة لتلك التي تطل إليها من خلف المرآة، وكأنها لن تراها ثانية. تهبط الدرج الطويل بفيلا واسعة أنيقة تحتوي جدرانها على لوحات عالمية وفوق "البايوهات" المنتشرة الكثير من القطع الأثريةالتي تحمل على جزيئاتها أسرار وتاريخ ذلك البلد؛ كلها كانت هدايا من رجالات الدولة والدول الصديقة، كانت كما الأميرات بفستانها الزهري

المرصّع بالماس الصناعي والكريستالات الصغيرة التي منحتها شكلا رائعا وكأنها خرجت من كتب الأساطير، كان فستانها والقرط هديتين من جهاز كبير في الدولة، الجهاز يتعامل مع أكبر بيوت الأزياء العالمية وهم من ينتقون الفستان المناسب لليلة والذي يروق لمزاج الضيف.

نادت على الخادمة، لتجيب: "نعم سيدتي"، طلبت منها أن تمسح البابونج الذي سقط على أرض غرفتها،ثم تتجه بناظرها إلى المنظفة وتتأملها: وتكرارها لكلمة: "نعم"، وكأنها سمعت كلمة مهينة أو لفظ سباب.

-لماذا تكررين: "نعم"؟ يكفي مرة واحدة.

- نعم،أقصد حاضر.

يرن صدى كلمتي "نعم وحاضر" في بيداء روحها كما قرع طبول مزعج ...

في طريقها لركوب السيارة تعثرت في ذيل فستانها، كادت أن تسقط لولا يد أحد الحراس أمسكت بها:

- ألف سلامة يا سيدتي؛ أنت ثروة قومية، الحمد لله أنك بخير.

نظرت إليه وعلى وجهها ابتسامة، خرجت من فمها كلمة لم يفهمها أحد من الحاضرين: "حوسلة".

ركبت السيارة ولحق بها عدة سيارات؛ فهي الليلة في طريقها لأداء مهمة وطنية.

إنها جسد تغذى من خيره وطينها من طميه، وهي صُنعت خصيصا لأجل الوطن، تدربت على يد هذا الجهاز العملاق وحصلت على أعلى الدرجات والتقييمات التي أهلتها أن تكون سفيرا لهذا البلد وكاتمة أسراره وكمبيوترا محملا بأهم المعلومات والأسرار الخاصة بضيوف الوطن، كم من صفقات تمت على يدها! وكم من معارك تم حسمها بعد تدخلها لصالح المواطن!

قد تعلمت كلمة من ثلاثة أحرف، تكررها عند كل نداء أو اتصال أو مهمة: "نعم"،

لانقاش، لاسؤال، لا تأجيل، لا تبرير، فقط نعم.

تذكرت وهي في السيارة أنها تعدت الأربعين ولم تعش قصة حب ولم تختبر دفء الأسرة ولم تنفرد بنفسها في رحلة أو سهرة، لا تجلس مع نفسها إلا عند النوم وعلى كرسيها الهزازالذي ورثته عن أبيها، والذي اشتراه من حر ماله، وتحتسي فنجان البابونج، لاتشعر بالراحة والاطمئنان إلا على ذلك الكرسي، الشيء الوحيد الذي تمتلكه ولم يهدها إليها الوطن، إلا أن الليلة غادرها الأمان بذلك الكابوس الذي صار يطاردها عند كل غفوة أو نوم.

تهبط من السيارة وتدخل قصرا محاطا بالحراس، ويستقبلها المضيف لها والذي هو ضيف الوطن من بلد شقيق، يقبل يدها ويتجه ممسكا بخصرها إلى الحفل الذي كان حصريا لهما، هي وهو فقط وعدد من الراقصات ومطربة؛ الحفل كان على شرفها.

كانت الخمور من كل الأنواع والماركات، مد يده ليراقصها على أغنية تصدح نغماتها فملأت الأجواء بالرومانسية، لكن الليلة كانت ينقصها أهم مافيها: الروح والحب؛ فهي أجواء مصطنعة كما مشهد في فيلم، طلبت أن تحتسي كأسا من "بلودي ماري"، تدلقها في جوفها ثم تفرد ذراعيها وكأنها تقول: أنا جاهزة للرقص معك الآن.

توجه للضيف سؤالا: هل تعرف معنى "الحوسلة"؟

- لا،أنتظر أن تخبريني.

- أن يتحول الإنسان إلى سلعة، أنا سلعة، ولكني لا أحصل على ثمني؛ يقبضه الوطن،

كم من أثمان دُفِعَت فيَّ ولكني لم أقبضها بيدي، قبضها الوطن.

- يبدو أن الكأس كان ثقيلا عليك.

- نعم، بل لا، نعم...

- نعم أم لا؟

- هي "نعم"، دائما نعم.

- مارأيك أن ندخل ونستريح في الداخل بعيدا عن الضوضاء؟

- نعم، بل لا.

لا، لا...ما أجملها من كلمة! ليتني تدربت عليها منذ سنوات، أحب تلك الكلمة واشتقت أن ألفظها، اقولها:لا، لا ...

خلعت حذاءها وألقت بقرطها أرضا، خلعت عنها فستانها وخرجت بقميص قصير، طلبت سيارة أجرة وانصرفت.

في اليوم التالي، خبر صغير في إحدى الجرائد الوطنية، يعلن فيه ببالغ الأسى وفاة سيدة أعمال في انفجار أنبوبة غاز بمطبخ شقتها المتواضعة بأحد الأحياء الشعبية.

المارد الأسود

سحب كرسيا وجلس مع زملاء القهوة،يجمعهم السن الذي تجاوز الستين، والتف الجميع لمشاهدة مباراة ثأرية في الطاولة بينه وبين المنافس السيد محسن.

بدأت المباراة وحاول أن ينغمس فيها وينفض عن رأسه كل المنغصات التي ظلت تطارده سنوات طويلة وحمل أحنى كاهله، فصار يسير منحنيا؛ فلقد امتطى كتفيه ظلٌ سمينٌ أسودُ ثقيلٌ يدفع برأسه إلى أسفل، فلايرى إلا قدميه، مابين ثقل الكائن الرابض فوق كتفيه وتسريحه من المصنع وضياع مبلغ التعويض في مشروع مطعم فاشل خرج منه مديونا للضرائب ولأهل زوجه، وها هو اليوم بلاعمل؛ شيخ لايجد من يؤجره لساعات كي يوفر احتياجات أسرته. ربما لو نزل ذلك الساكن رقبته، ربما يخفف من ضعفه وهوانه ويتمكن من العمل. وجاءت الثورة ليطول زمن الضياع، يهرب إلى المقهى والطاولة، والصحبة سوف يأخذونه بعيدا عن التفكير في بيته، وستبعده عن الشعور بالوهن من ذلك الملتصق بظهره وكتفيه.وكأن الدهر تآمر عليه فألقى بكل المصائب على رأسه كما رحيق زهرة جذب إليها نحل الحديقة جميعه.

أبدا لم يتمرد، أبدا لم يرد إهانة بإهانة، كان متعففا عن الانزلاق في همجية الكثيرين، وكلّما قبل ضغطا أو مسؤولية أو إهانة، زاد وزن الممتطي كتفيه.

ماهذا الصراع؟ وما هذه الثورات؟ ولم كل هذا التمرد والعنف؟

كيف سيوفر لزوجته مصروف الغد؛ وقد تم إغلاق المصنع الذي يعمل به بعد خسائر سببها المصنع وإدارته؟ كما قال متحدث باسم الحكومة، قال "نيكيتا خروتشوف": البقرة التي يمتلكها صاحبها تدر حليبا أكثر من البقرة التي تمتلكها الدولة. فكان لابد من بيعه للقطاع الخاص؛ ليعيد هيكلته وينقذه من تراكم الخسائر، ولكن تم بيع المصنع كأرض وآلات وتم تسريح كل العمال بعد منحهم مبلغا تصور الكثيرون منهم أنه سيمكنهم من بداية جديدة؛ فقد يتمكن من فتح مشروع خاص يديره بنفسه فيكون حرا لينضم لشريحة رجال الأعمال، لكن الغالبية قامت بتصفية كل تلك المشروعات نتيجة للخسائر التي تعرضوا لها؛ فهم لأول مرة يمارسون العمل الحر أوالتجارة وليس لهم فكرة عن إدارة المشاريع ولا معنى دراسة الجدوى، وأن يحسب المكسب والخسارة فهي علوم لم يسمعوا عنها، فلقد اعتاد المصري أن يعمل قليلا ويقبض قليلا، واعتاد الاسترخاء والاقتصاد، ولكن الاقتصاد في الحلم، وكان محمود من هؤلاء؛ فلقد خسر مكافأته في مشروع المطعم ليعيش بمعاش لايكفي متطلبات أبنائه الذين كبروا وكبرت معهم احتياجاتهم من مصاريف الجامعة وزواج ابنته،

ليزيد الطين بلة أن تقوم ثورة فتغلق أمامه فرصة العمل اليومي بأحد المقاهي ويخسر مصدر رزقه الذي كان يسند معاشه القليل.

فجأة يقف الجميع ليشاهد تلك المظاهرة التي اقتربت من المقهى والتي تنادي بالحفاظ على الديموقراطية وعودة الرئيس المنتخب، بعد قليل يقرر صاحب المقهى بضرورةغلق المقهى حتى لايتعرض لخسائر نتيجة مطاردة الشرطة وإطلاق النار.

يستأذن محمود في الانصراف محاولا السير بعيدا عن المظاهرات؛ فلا وقت لديه لأن يشغل عقله بسفاسف الأمور، مالي وحاكم الدولة؟ ومالي والديموقراطية؟ ومالي بالحرية؟ أريد من يجد لي حلا لبطالتي ومكانا أقبض منه لأوفر لبيتي مصروف الشهر؛ المظاهرات رفاهية لايمتلكها الثور الذي تم ربطه بالساقية مغمى،ولكن حركته بطيئة وازدادت بطئا بعد خروجه على المعاش ومفارقة لياقته البدنية له وتضخم الكائن المفترش ظهره.

يأخذ الشارع الجانبي،يسمع إطلاقا للرصاص ومطاردة للمشاركين في المظاهرة،يمد ساقيه ليبعد بنفسه عن هذا الشجار، ليسمع صوتا من بعيد:

- هاتولي الراجل اللي هناك ده،امسكوه.

حاول أن يرفع هامته؛ ليرى من يتكلم ومن يطلب أن يمسكوا به.

يتم إلقاء القبض عليه، ويتعرض للضرب، يحاول أن يفهم الشرطي أنه كان جالسا على المقهى ولا علاقة له بالمظاهرات، ولكن لاحياة لمن تنادي؛ "فالمواطن متهم دائما حتى تثبت براءته في ظل قانون الطوارئ". تم دفعه ليركب سيارة الشرطة مع عدد من المتظاهرين وترحيله إلى أحد المراكزوهناك تهمة أضيفت إلى ملفه الذي افتُتح بلقب عاطل: إثارة الشغب والانتماء لجماعة محظورة وحمل سلاح غير مرخص.

حين وضع يده في جيبه وجد نردا كان يلعب به الطاولة على مقهى، يشاهد المارة والمشاركين في مسيرات تندد بالاحتكار، يصعد "البوكس" ويهبط من فوق كتفيه المارد الأسود، ليتركه لمصيره وحده.

"إنسانة"

العالم كان لها أسرتها وعدد قليل جدا من الأقارب، كانت تحاول أن تنأى بنفسها عن أي إشارة تغضبها أو لمحة تنم من الآخرين،كانت على درجة عالية من الذكاء والحساسية من أي تصرف قد يفهم منه سخرية من نقصها؛ أتت إلى هذا العالم مزودة بإمكانات التواصل والتعامل مع الحياة إلا من حاستين: حاسة السمع والتي أماتت معها قدرتها على الكلام، فكانت صماء بكماء.

حرمت من هبة الإنصات للطبيعة وتذوق أصواتها: حفيف أوراق الشجر وزقزقة العصافير، حتى صوت نهيق الحمار. لطالما تمنت أن يكون لها القدرة على أن تميز بين الصوت الجميل والقبيح، ولكنها مشيئة القدر. خرجت إلى الطفولة وقد تصورت أنها سليمة وأن كل من حولها مثلها، إلى أن خرجت تلعب لأول مرة، لتختلط بغيرها من الأطفال، لم تلحظ إشارات ولا إيماءات لا باليد ولا بالإصبع؛الجميع يحرك شفتيه والآخر يرد، وهي غريبة، إنهم يتواصلون بالشفاه؛ هناك لغة أخرى للتواصل غير إشارات اليد، ترى حركات شفاههم ويتوجهون إليها بالكلام وهي في ذهول وكأنها نزلت في مركبة فضائية، لقد ظلت والدتها تخفيها عن الجميع وكأنها عار يجب أن تخجل منه.

صرخت وحاولت أن تخفي وجهها بين يديها،لم تتوقف عن الصراخ، فزع جميع الأطفال وهرعوا إلى ذويهم خشية ان يتهمهم أحد بأنهم أساؤوا إليها.

ذات يوم،كانت هناك زيارة من إحدى الجارات وبصحبتها ابنتها، رحبت بها ودعتهما للدخول، البيت بسيط جدا؛ غرفتان وصالة، لامطبخ بل بوتاجاز بالصالة وتربيزة، يتم الطبخ عليها، والصالة بها مساند قطنية على الأرض؛ فالأب عامل يومية يعمل بالمعمار وحالتهم المادية تكفي بالكاد.

جلست الأم على الأرض، وكانت "إنسانة" تجلس بالغرفة الداخلية أمام التلفاز، لم تشعر بدخولهما، قدمت إليها ابنتها "نجاة"؛ كانت أيضا صماء بكماء، جميلة وأنيقة،فهناك اهتمام بالابنة ورعاية واضحة.

اعتذرت لها عن السلوك الذي صدر من الأولاد بحق ابنتها وأن هناك سوء تفاهم حدث،وأن الأولاد لم يسيئوا إلى ابنتها؛هذا ماقصته لها نجاة، حيث إنها كانت تلعب معهم، لكن ابنتها شعرت بالخوف.

- ابنتك أيضا خرساء؟!

- نعم، لكني لا أشعرها بهذا النقص، وأحاول أخليها تلعب وتختلط مع الناس.

- إنها المرة الأولى التي أدع "إنسانة" تخرج لتلعب مع الأخرين،فهي لاتتكلم مع أحد غيري أنا وأبيها وأختها.

- البنت في سن المدرسة، لماذا لم تلحقيها بالمدرسة؟

- هو أنا قادرة على مصاريف إخوتها الأصحاء لأفكر في تعليمها؟هي قاعدة تتعلم الطبخ والتنظيف؛ حتى تساعدني في شغل البيت وكفاية عليّ تعليم إخوتها.

- حرام؛ من حقها أن تأخذ فرصتها وأن تتعلم؛ نحن لن ندوم لهم،والبنت لابد أن تتعلم وتشتغل حتى تعول نفسها، حتى يستريح ضميرنا بعد أن نغادرهم ونرحل.

-كل واحد أدرى بظروفه، وكمان البنت نفسها لا تُشعر الناس براحة حين تختلط بالناس.

- عموما ربنا يوفقك ويقويك عليهم، لكن فكري، ولو احتاجت أي حاجة أو استخراج أوراق لا تتردي في طلب المساعدة مني. واضح أن ابنتك ذكية وممكنأن تتعلم ويكون لها شأن.

- أنا كان عندي بنتي الكبيرة مثلهاخرساء؛ حبستنفسها عن الناس، تملك منها المرض وماتت.

- يعني هي ليست أول بنت بكماء؟

- لا،عندي اثنانغيرها.

-كيف تنجبين ثلاثة بكم ولم تعرضي نفسك للفحص الطبي؟

- إنه القدر والنصيب، لن نعترض أو نتدخل في قضائه وحكمته.

- حبيبتي، كما خلق الله المرض خلق العلاج، كان ممكناأن تتجنبي إنجاب عيال بكم لو كنت عرفت السبب وأخدتالعلاج.

- هل تعيرينني بمرض أولادي وتتهميني بأنني سبب لخرسهم؟

- آسفه؛ يظهر أني لخبطت، بعد أذنك.

نادت على نجاة بصوت عالٍ، جاءت مسرعة وأمسكت بيد أمها.

- ابنتك تسمع؟

- نعم،لأني عملت لها زرع قوقعة وركبت لها سماعة،وهي في تحسن، وأعمل لها جلسات تخاطب.

- ياأختي أنتم ناس فاضية؛ تهدرين وقتك وفلوسك على الفاضي، وفريها ياأختي لجهازها، ربنا يرزقها لما تكبر بعريس، في الأخر مصير البنت للزواج.

- في رعاية الله.

-مع السلامة. أنستوشرفت.

نظرت إنسانة إلى نجاة نظرة حب؛ فلقد وجدت أخيرا فتاة تحدثها بالإشارة كما تفعل أمها وأخواتها، فلم تشعر بالغضب الذي شعرت به حين لعبت مع أولاد الجيران.

مرت السنون ولم تغادر إنسانه خلالها البيت إلا فيما ندر، ولأن الشقة كانت في البدروم، فلم تكن تدخلها الشمس؛ أصيبت بهشاشة العظام واضمحلت عظام جسدها،فلم تتمُ أو تطل، بل قصر طولها وأخذت شكل القزمة، وبدأت حركتها تضعف، وأصابت ركبتيها الخشونة وأسنانها ضعفت، وازدادت عصبيتها وانطواؤها.

في صدفه نظمها القدر،التقت نجاة بأم إنسانة وتعرفت إليها، سألتها عن ابنتها،فأخبرتها بمرضها، فوعدتها بأنها ستحضر لزيارتها.

صارت نجاة فتاة جميلة ترتدي الملابس الأنيقة.

رن جرس الباب، فأضاءت اللمبة الحمراء بحجرة إنسانة،استندت على عكازها وتوجهت إلى الباب لتفتحه؛ كانت تجلس بمفردها، فلقد ذهبت أمها إلى السوق وغادرت أختها البيت بعد زواجها، وبقيت هي وأمها.

تُفاجأ إنسانة بسيدة جميلة فارعة الطول تضع مساحيق التجميل، فبدت كما ممثلات السينما التي تشاهدهم على شاشة التلفاز الذي صار كما الرفيق لها تقضي جل وقتها أمامه،

ما يصعب عليها فهمه تطلب من أمها ترجمته لها، فتصف لها الأم الأحداث بحركات اليد كما الرموز التي اتفقت بينها وبين أمها عليها حين تستعصي عليها أشياء لا تفهمها.

رحبت بها ودعتها إلى الدخول.

دار حوار بينهما بالإشارة، لامت إنسانه نجاة لغيابها الطويل عنها؛ فهي صديقتها الوحيدة.

اعتذرت لها قائلة: ظروف التعليم ثم الدراسات العليا والعمل، فلم يكن هناك وقت، ولكن كانت تطمئن عليها من أمها.

- لقد مرت سنوات طويلة منذ التقيت بك حينما كنت طالبة في الإعدادية.

- نعم أتذكر ذلك.

- هل فعلا أنهيت دراستك وحصلت على الشهادة كما الآخرين؟

- نعم.

- وماذا تعملين؟

- أعملكمعلمة للصم والبكم.

- أنت صرت جميلة وأنيقة كما الممثلات اللاتي أشاهدهن علىالتلفاز.

- أشكرك.

- هل التقيت برجل أحبك؟

- نعم.

- هل رضي بك وأنت بكماء؟

- أنا أسمع قليلا وأفهم الناس حين يتحدثون بالإشارة.

- كيف؟

لقد تعلمت لغة الشفاه، فلست في حاجة لأن يتعامل معي الناس بالإشارة إلا فيما ندر.

- إشاراتك تختلف أحيانا عن إشاراتي،لم؟ وأنت مثلي؟

- لأنني تعلمت لغة الإشارة العالمية، والتي بها يتواصل كل البكم؛لأنهلا يجوز أن يكون لكل أبكم رموزه الخاصة؛ لن يسهل بها التعامل فيما بينهم وأيضا مع العامة، لذا كانت لغة الإشارة التي سهلت أن يتعلمها الناس ويتعاملوا بها مع أي أبكم.

-تغيرتيا نجاة؛ صرت أقوى وأجمل،وأنا صرت أضعف وأقصر وأعيش حياتي بين الشاشة وأسرتي الصغيرة. يتعاملون معي كما الخادمة، ولكني

رفضت ذلك وتمردت عليهم ولم أعد أخدم أحدا،وللأسف بمرور الوقت تيبست عضلاتي وتهششت عظامي، وصرت أتعكز كما العجائز، أرى بإصبعك خاتما.

- نعم، لقد تزوجت الشاب الذي أحببته، وصرت أما لابنة جميلة.

- تزوجت أيضا؟وأنجبت؟ هل ابنتك مثلنا بكماء؟

- لا، بل تتكلم.

- كيف ذلك؟ لقد قالت لي أمي إنني لو تزوجت سأنجب أطفالا بكما مثلي؟

- الخرس ليس مرضا وراثيا يا إنسانة.

- التعليم أنقذك وجعل منك سيدة كما كل السيدات، أما جهل أبي وأمي حولني إلى بنت معاقة وعالة عليهم وعلى الناس والمجتمع، تعاملوا معي وكأني خطيئة يجب أن يخجلوا منها ودفنوني هنا.

- آسفه يا إنسانة، لم أقصد أن أضايقك، لقد جئت لكي أطمئن عليك ولم أتصور أن تكون حالتك الصحية سيئة هكذا؟أنت تحتاجين إلى الشمس والهواء؛ لابد أن تخرجي لتشاهدي الشمس وتستنشقي الهواء وتنخرطي بالناس،لا يجب أن تتقوقعي أمام التلفاز، ذلك العالم الافتراضي الذي

يتحدث من طرف واحد، وأنت متلقية سلبية له، الحياة خارج جدار هذا المدفن.

- معك حق، أنا مدفونة، لكن الوقت تأخر، لقد ضعف جسدي ووهنت عظامي واعتدت الوحدة.

- لابد أن تقاومي وتتغلبي على مخاوفك وتخرجي، سوف أمر عليك كلما كنت قريبة منك؛ لعلني أستطيع أن أمد لك يدي تستندين عليها وتخرجين إلى الأعلى حيث الشمس والهواء والناس.

انصرفت نجاة، وحين انصرافهاالتقت بأم إنسانة، لامتها على ما وصلت إليه ابنتها، كانت تحدثها أحيانا بكلمات بسيطة يتبعها أصوات غاضبة وأحيانا بالإشارة.

- أمي هل رأيت نجاة؟ صارت سيدة عاملة وأما، أماأنا فهنا أتفرج على التلفاز وأشاهدك وأنت تخرجين وتعودين، حضرت زواج إخوتي وأنا مختبئة خلف جدار حجرتي، لقد أشعرتني أنني عار يجب أن يتوارى عن الناس حتى لا ينعتونك بأم الخرساء.

تمددت إنسانة على فراشها والدموع غطت وجهها وعينيها.

دعوني أحلّق

كان أبي غنيا؛ يحتكم على ثلاث ثروات لا يتنافس عليها معه أحد إلا غلبه: الجهل والفقر ومرض أصاب نفسه، أو قد يكون خللا أصاب خلايا عقله، عطب في النفس.

كان يداويه حكيم لم يتلق علما بل يمتلك موسا للحلاقة، وبروة صابون وعلبة من الألمونيوم يشمئز الحيوان أن يقرب منها فمه، ولكنه كان الطبيب الذي يعالج أبي إن أصابته نوبة شتات، شتات العقل وشتات القرار، أو كما يقول العلم: نوبة صرع.

لينتقل بعد فشل حكيم القرية إلى متخصص الشعوذة، وجالب الجن ومسخره لمداواة العصي من الأمراض؛ التي لم يُفهم أسبابها، ولم يختبر أهل القرية تلك الأعراض من قبل، فالكوليرا لها أعراض، والحصبة، وتعبالمعدة، أوالتهاباللوزتين، أما أن تتحدث بلغة ليست متناولة بين الجيران ولا يفهم معناها، وأن يرتفع صوتك بنبوءات وصراخ وتحجر في العينين؛فلا شك أنك ممسوس من الجن، وقد اتخذوا من جسدك بيتا ومن روحك مرتعا.

هكذا صاحب أبي رفقاء من عالم ما وراءالطبيعة، فكنا نحيا ما وراءالحياة.

عشت الصراع بين نفسي الموروثة من أبي، وأحاديث مع كائنات تخطت الحواجز واقتحمت عالم الإنسان، وتنافس بينهم لاستعمار جسدي وعقلي،

وأحاديث أيضا تخطت طبقات الغلاف الجوي، وحاجز الجاذبية، لتتحول إلى أحاديث إلهية تم تأريخها في كتب سماوية، كانت الساحة ممهدة لأن تظل الحرب مشتعلة والضحايا أنا ونفسي وجسدي، كنت أرى وأسمع وأتحدث إلى تلك المخلوقات والتي أنكرها الجميع واتهموني بالجنون أو تلبس الجن لجسدي.

كيف أصف لهم ما أعيشه؟!كيف أحكي لهم ما يدور بيننا من لقاءات وحوارات ومناظراتفكرية؟! أنا أفهم لغتهم وأتواصل معهم بها، وأستوعب ما يرفضونه من عالمي، وبغضهم للإنسان الذي كان له الأفضلية عند الله فمنحه السلطة والحرية والعقل في الوقت الذي منع عنهم كل تلك العطايا لأكون أنا ضحية لذلك الصراع، وأعيش حياة مزدوجة؛ أتعامل مع البشر وأتحدث لغتهم ثم أنتقل إلى عالم آخر قيل إنه عالم سفلي،لأتحدث لغتهم وأحيا بينهم.

تمكنت من أن أتخلص من إرث أبي ونصيبه من الفقر، ثم قضيت على نصيبه من الجهل، ولكني لم أتمكن من أن أرمم إرثي منه ونصيبي من خلله النفسي وازدواجيةالحياة،

لقد نجح أبي أن ينقلني إلى عالمه الشاذ دون وسيلة سفر، بل حلّقت معه من خلال "الجينوم" أو من خلال جينات ورثتها عنه. كنت أتشاجر مع السماء كثيرا وأحيانا أبكي وأتوسل إلى الله أن يوحد ذاتي ويخلق مني بشرا

سويا بنفس إنسانيةواحدة، أتعايش بلغة أهل الأرض وأتزوج منهم وأبني أسرة وأشيخ مع حبيبتي ويكون لي حقيبة مكدسة من الدهون أحملها فوق أمعائي تلك المسماة: "الكرش".

تمنيت أن أحيا بعقلي وجسدي، لكنه أرادها حياة مزدوجة أو نفسامنفصمة بين عالمين لا يتحدان: "سكيزوفرينك".

كونت ثروة بسيطة؛ أغنتني لوقت قصير عن الحاجة، ولكنها لم تميزني بين الناس؛ فمازال تاريخي الوراثي وغيابي وأنا بين الناس وارتفاع صوتي وحديثي مع مخلوقات أراها متجسدة أمام عيني، فيرتفع صوتي أحيانا، فيتعجب من حولي ويضربون كفا بكف، يصحبها: "لاحول ولاقوة إلا بالله" ربنا يشفيه ويرفع عنه.

أصحو فجأة وأصرخ فيهم؛بأنهم هم المرضى وليس أنا، لكنهم يكسبون الجولة ويقر الطبيب النفسي بحكمهم، أن الخلل فيَّ أنا، أعيش أسابيع بأحد المصحات والتي لغمت معدتي بحبوب غيَّبت صحبتي من العالم الآخر،ولكنها جعلت من جسدي خرقة بالية،تسقط وتمزق عند أي لمسة،أجلس وكل أعصابي مفككة لا قدرة لي على المقاومة أو حتى الوقوف في اتزان،

غاب من يتحدثون معي ومن يلهمونني الشعر والأدب والقصص التي نقدها المتخصصون بأنها كانت أحداثا غير مسبوقة وصورا مستقبلية كما

أدب اللامعقول أو الخيال العلمي، لم يعوا أنني بالفعل أرى تلك العوالم،بل أعيش بين أهلها، ومافعلته ماهوإلا تسجيل لتلك الأحداث بلغتي التي منحتها لي تلك المخلوقات،عبقريتي التي وصفني بها النقاد، كانت مستقاة من هذا العالم الذي يتهمونني بأنني أختلقه، أكذب حين أقص معالمه.

لقد مزقوني، زادوا من تشتتي، كيف أكون عبقريا ومجنونا في نفس الوقت؟

هل ما كتبته كان أدبا غير مسبوق ونهضة أحدثتها في عالم الأدب والرواية والشعر أم جنونا أصابني؟

في لحظة رفض للازدواجية التي نعتونيبها، والازدواجية التي أعيشها، قررت الاستسلام لعلاج الأطباء، فانتهت موهبتي، وتوقف الإبداع عني لأهبط إلى عالم يقال إنه سوي، هبطت إلى الأرض، ولكني لم أستمتع لا بالحبوب، ولا بالبطالة التي أصابتني، بعد أن تلقيت العلاج ولم أتذوق الهبوط على الأرض؛ فلقد كنت أستمتع بالتحليق معهم، هناك، في ذلك العالم المختلف وحواراتناالملهمة.

فكان لزاما أن أرفض الحبوب وأتوقف عن زيارة الأطباء النفسيين، فإذا بهم يعودون للظهور ويلحون عليّ أن ألحق بهم إلى عالمهم، فأنا لا أنتمي إلى الأرض، أقنعوني بأن أترك الأرض وألحق بهم، بأن أحلق خلال النافذة؛

فالموت لا قدرة له عليَّ، أنا كائن خارق للطبيعة بشهادة المبدعين والجاذبية لا تأثير لها على قدراتي؛ قفزة واحدة وألحق بهم.

أنا لم أنتحر.

يصل إلى أذني صرخات أمي، ثم ألم في ساقي وظهري، ثم تجمع من البشرحولي، يختفيالألم، ويغيب معه إحساسي بجسدي، أراني مسجى على الأرض وابتسامة ثبتت على شفاهي وأمي تبكي وتحتضن جسدي، وأهلي يبكون شبابي وذكائي وعمري القصير، أما أنا فلقد تمكنت من اجتياز الحواجز وصرت فردا أنضم إلى تلك الأفراد غير المعترف بوجودهم، غيرالمرئيين، حسمتأمر ازدواجيتي وخلافا على جنسيتي وهويتي.

حيث الذكريات، شابة

... ينفض يده وينظر إليها وكأنه يحاول أن يتيقن أنها خالية، خالية من يد تتشبث به، تتعلق به فتعرقل أحلامه، فكل قرار أو انغماس في علاقة، هو المزيد من القيود وضياع مساحة من الحرية.

تحسس رقبته، التي كانت مائلة من حمولة تقطن ظهره، حين نظر في بركة ماء من انخفاض في الأسفلت نتج عن رداءة ذوق وضمير من عبَّده.. كان يرى أنامل لوثت ياقة قميصه، وبعضَ عطر اختلط بعرقه، فكان مُنفرا.. أعاد النظر إلى كفه؛ يبحث عن يد كانت تركن عليه، فلم يجد إلا الفضاء.. يتلفت حوله في خوف ممزوج بالذهول؛ ما الذي جاء به إلى هنا؟! ولماذا يشعر بثقل قدميه وهو ما زال في عقده الثالث ومنذ لحظات كان زفافه إلى حبيبته؟

أين ذهبت عروسه؟

بل أين زوجه التي كانت تحمل عنه مسؤولية البيت والعلاقات، وكل ما يتعلق بالواجبات الاجتماعية، فهو فاشل في تلك الأمور؟!

لكن .. لماذا ذكرياته معاقة، غير مكتملة، فلقد تاهت منه التفاصيل، ما هي إلا بضع صور ينقصها بعض الملامح، فبدت مشوهة .. لا مشهد مكتمل ولا حدث مفهوم..

ينفض رأسه، عبثا يحاول أن يسترجع أين ذهبت زوجه، ولماذا تركته هنا وحيدا ؟!

هل ما زالت غاضبه لأنه رفض أن يقضيا شهر عسلهما بالأقصر، حيث طريق الكباش ؟!

يالها من كئيبة! هل يقضي أحد أسبوعَ عسله بين أطلالٍ للموتى.. حتى لو كانت حضارة ؟!

لماذا ترفض البحر والشمس والوجوه الحسان!!

جائع هو، لايذكر سوى جوعه.

ينظر إلى معطفه، يدقق النظر فيه، يتحسسه، يستغربه، ثم يفتش في جيبه، يخرج حافظة نقود، خاوية كما كفه، يفتحها، يجد بطاقه هوية تحمل صورة رجل عجوز واسمه...

- من هذا الشيخ ؟ وكيف يحمل نفس اسمه ؟!

هل هو أبوه، ربما عمه، فالاسم واحد، وبعض الملامح تشبهه، ولكن من في البطاقة شيخ كبير ؟!

أريد أن أنام.. أين ذهبت زوجي ؟!

غضبها يطول، وأنا لا أتحمل النكد..

"جلس على مقعد رخامي، تحسسه بيده، رغم أنه كان باردا بل ثلجي الملمس، إلا أنه لم يتعرف على تلك البرودة، لم يشعر بذلك الثلج، كأنه من كوكب آخر، كائن فضائي لايحس البرد أو السخونة.

تلفت حوله، يبحث في الوجوه عن شخص يعرفه، ولكنه لم يستطع أن يتعرف على أي منهم..

يتقدم إليه شرطي، يسأله عما يفعل في تلك الساعة من الليل..

سكت.. لم يجد إجابة..

لكنه أكمل جملة لم يع كيف وصلت إلى لسانه..

-أنتظر زوجي، فلقد ذهبت لتشتري لي حبوب الضغط...

-هل معك بطاقة ؟

"نظر حوله، ثم إلى السماء، راجيا من الله أن يرسل إليه من ينقذه من تلك الأسئلة التي لا يعرف لها إجابة.. لكن.. لا أحد.."

- نعم.

- أسألك هل معك بطاقة ؟!

- معي بطاقة ولكنها ليست لي..

" أخرجها من معطفه ومد يده بها إلى الشرطي

- تمام يا والدي .. لكن لابد أن تنصرف إلى البيت، فلا يجوز أن تظل نائما هكذا في الشارع، خطر عليك.

- والدي ؟! حاضر..

يقف في ارتباك، فإلى أي وجهة يسلك؟ هل يسير إلى الأمام، أم يرتد عائدا إلى الخلف؟ ربما بيته إلى اليمين أو إلى اليسار.. لكن السيارات كثيرة.. وهو أجنبي، لايفقه قوانين تلك المدينة.

ماهي إلا لحظات حتى توقفت سيارة، يهبط منها شاب وفتاة، تجري الفتاة إليه، تحتضنه باكية.

ـ آسفة يا أبي.. لتغفر لي.. كيف غبت عن ناظري وخرجت من الشقة ؟! كنت ستضيع مني كما ضاعت أمي..

ضائعة أنا منذ ماتت، فلاتحرمني منك.. الحمد لله أن ألهمني الله فكرة أنك هنا قرب بيتنا القديم.

يمد الشاب يده و الفتاة، ويمسكان به ويتوجهان به إلى السيارة..

تمسك الفتاة المحمول، ترد على مكالمة..

- لقد وجدناه.. كان على الرصيف المقابل لشقتنا القديمة بالظاهر، نعم نحن في الطريق..

"ينظر إليها.. يتأملها"

"نعم هي ابنتي"

تضمه إلى صدرها وتربت على خده تقبله...

- افتقدتك أبي.

- أريد أن أذهب إلى زوجي، خذيني إليها، هي في بيتنا بالظاهر.

يترك رأسه تستريح فوق كتفها، ليغيب لحظات.. ربما.. ساعات.. ربما.. سنوات.. ربما..

ليعود بعدها إلى زوجه، يصحبها إلى الهدوء، السلام، حيث الذكريات شابة...

تمت

الإهداء..... ٣
البيانولا..... ٥
أحببتهم الثلاثة..... ٨
الدايت "نظام غذائي"..... ١١
ذات البنطال المموه..... ١٥
المتفردة..... ٢١
عابر السماء..... ٢٥
عاشت فماتت..... ٢٨
الوشاح الأزرق..... ٣٢
صورة حبلى..... ٣٤
امرأة نصف عارية..... ٣٧
صورة الملاك الباكي..... ٤٠
صورة داعية..... ٤٣
الوسيم..... ٤٦
امرأة سمينة..... ٥٠
باقة زهور..... ٥٣
ابنة الربيع..... ٥٧
جواز مرور..... ٦٠.
رسالة بحبر أبيض..... ٦٨
واحد ...صفر.....
ضيفة غامضة..... ٧٥
فستان مازال ينتظر..... ٨٠
علبة المناديل..... ٨٣
مشهد لم يتم..... ٨٧

عيد الأب..... ٩٤
جيفارا..... ٩٨
حوائط باهتة..... ١٠٣
كشك الشهيدة..... ١٠٩
وصفة علاج..... ١١٣
نيلوفر..... ١١٧
يناير... ثانية..... ١٢٦
سلحفاة..... ١٣٠
القاتل ابني..... ١٣٣
لا..... ١٣٨
المارد الأسود..... ١٤٣
إنسانة..... ١٤٧
دعوني أحلق..... ١٥٦
حيث الذكريات شابة..... ١٦١